مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (6)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (6) 2018

"اللُّغة الوُسطى في روايات أحمد يوسُف داوود"

الدكتور فاخر صالح ميَّا*
ريتّا مالك علي**

(تاريخ الإيداع 29 / 8 / 2018. قبل للنشر في 21 / 11 / 2018)

□ ملخّص □

إنَّ اللُّغةُ هيَ أداةُ التَّواصُلِ ذاتُ الدَّورِ الأهمِّ في حياةِ الإنسانِ وعلاقتهِ معَ بيئتهِ، وتقويمِ صلتهِ بالمجتمعِ الّذي يُولَدُ ويندمجُ فيه. ولطالما كانتِ ابنةُ المجتمعِ، المُتأثّرة بتطوّرِه، والمُتأخِّرة بتأخُّره.

وبما أنَّ الفُصحى هيَ لغةُ التّعامُلِ الرّسميّة، الرَّصينةِ بنحوِها، وصرفِها، ومُفرداتِها المُنتقِلة منَ السّلف إلى الخلف، إلّا أنَّها قد تكونُ في كثيرٍ منَ الأحيانِ صعبةَ التّطبيقِ والوُصولِ إلى جميعِ الناسِ على اختلافِ مقوّماتهم الثّقافية، فمنَ الصَّعبِ أن تنقُلَ الواقعَ وإيقاعاته بشفافيةٍ إلى جميعِ النّاس، وأن تُعبّرَ عنِ الحياةِ ببساطتِها وعفويّتها، وتصِل إلى النّاسِ على اختلافِهم.

وبما أنَّ ظاهرةَ وجودِ اللغةِ العامّيّةِ إلى جانبِ الفُصحى، ظاهرةٌ لُغويّة في جميعِ دُوَلِ العالم، مِن هنا جاءتِ الحاجةُ في الرّوايةِ العربيّةِ بشكلٍ عامّ، والرّوايةِ الرّيفيَّةِ بشكلٍ خاصّ، إلى لُغةٍ وُسطى بينَ الفُصحى والعامّيّة، لُغةِ حِوارٍ روائيّة قادِرة على تقريبِ الفُصحى منَ الحياةِ اليوميّة وإبداعِ صياغةٍ حواريّة تمنحُ الشّخصيّاتِ ملامِحَها النّفسيّة والاجتماعيّة، لغةٍ مقبولةٍ عندَ مُختلفِ مُستوياتِ القُرّاء العلميّة والثّقافيّة، ومكانتِهِم الاجتماعيّة، تخدِم النّصّ الرّوائي في التّعبيرِ عنِ العواطفِ الإنسانيّةِ الّتي تخرجُ بِلا وعيٍ، حيثُ تعجزُ الفُصحى برصانتِها وتركيبِها عنِ أدائهِ والتّعبيرِ عنهُ، دونَ المساسِ بمكانةِ الأخيرةِ وقواعدِها ومبادئِها الأساسيّة انطِلاقاً من أنَّ الفصحى كانت في يومٍ منَ الأيّامِ لُغةً عامّيّة، نزلت بلهجاتٍ مُختلِفة، عُبّرَ عنها سابقاً بكلمة "اللغة" أو "اللسان". قالَ تعالى: {وما أَرْسَلْنَا مِن رَسولٍ إلَّا بِلِسانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيُهدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكيمُ}[1].

الكلِمات المِفتاحيَّة: اللُّغة، الفُصحى، العامّيَّة، اللَّهجة، أحمد داوود، الوُسطى (الثَّالثة).

* – أستاذ – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعُلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة سورية.
** – طالبة ماجستير (الدراسات الأدبيّة) – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعُلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سورية.
[1] – *القرآن الكريم*، سورة إبراهيم، الآية (4).

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (40) العدد (6)2018
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (40) No. (6) 2018

" The Third Language 'in-between' in the Novels of Ahmed Youssef Dawood"

Dr. Fakher Saleh Maya *
Rita Malik Ali **

(Received 29 / 8 / 2018. Accepted 21 / 11 / 2018)

□ ABSTRACT □

Language is one means of communication that has the most significant role in enhancing humans' life and their relation with their environment alongside their relations with the society in which they were born and raised. Language has always been the product of this society on whose progress and regress have an impact upon it. It is well-known that standard Arabic is the official language with its accurate grammar and vocabulary moving from the ancestor to the descendant. However, it very often may be difficult to apply or have access to for most people regardless of their cultural qualifications. It is also difficult for this language to convey or transfer reality as clear as it is or to express how easy and spontaneous life is to all people. Since the phenomenon of vernacular language alongside standard language is a linguistic one all over the world, thus the necessity in the Arabic novel in general and countryside in particular emerged to have an in-between third language that is neither standard nor vernacular. This novel language is to be capable of bringing the standard closer to daily life and ending up with one form of dialogue that provides characters with their psychological and social traits; a tacit language for all different cultural and scientific levels of readers and their social status. Also, this language will help the text express the human emotions that emerge subconsciously for the standard one is incapable of doing so. Needless to say, standard Arabic was one day a vernacular with different dialects expressed through words like "language" and "tongue." Allah said: ("We have not sent but a messenger to represent his nation and clarify the truth to them. For, God guide and misguide whomsoever thus He is the Noble and Wise").

Keywords: Language, standard, vernacular, dialect, Ahmad Dawood, third language (in-between).

*Professor - Department of Arabic Language - College of Arts and Human Sciences - Tishreen University - Lattakia, Syria .
**MA student (Literary Studies) - Department of Arabic Language - College of Arts and Human Sciences - Tishreen University - Lattakia - Syria .

مُقدِّمة:

تُعدُّ اللغةُ واحِدةً مِن أهمّ مكوّناتِ الخِطابِ الرّوائيّ والمُميّز الحقيقيّ للروايةِ عن باقي الأجناسِ الأدبيّةِ الأخرى. كما أنّها الأداةُ الأهمّ والحامِلُ لنوايا المُبدِع، والمكوّنُ الإبداعيُّ والجماليّ في عمليّةِ الخلقِ الرّوائيّ. ومن هُنا يتحتّمُ على الروائيّ أن يمتلكَ ناصيةَ اللغة، ويُحسنَ توليدِها واستِثمارها في سياقاتٍ تواصليّةٍ تقريراً، وإيحاءً وتفجيراً لِمحتواها استِثماراً يرقى بكونِها جِسراً بينَ الأديبِ والمُتلقّي.

وما يميّزُ البناءَ الرّوائيّ ويُضفي عليهِ طابعَهُ الخاصَّ بهِ والمميّزَ لهُ هوَ لُغتُهُ الرّوائيّة، من حيثُ إنَّ الرّواية هي تشخيصُ اللّغةِ وتصويرُ الذّاتِ والواقعِ اعتِماداً على التّشكيلِ اللغوي. "والبحث في اللغةِ –من وجهةِ النّظر الحديثة– يعترفُ بالتطوّر باعتبارهِ مظهراً اجتماعيّاً يحدثُ للُّغةِ كما يحدثُ لغيرِها، وينظُرُ إليها بهذا الاعتبارِ فيُلاحظهُ ويصِفُه"[1]، وما للُّغةِ من دورٍ مهمٍّ وأساسيّ في توشيجِ العلاقةِ بينَ الشخصيّاتِ الرّوائيّة، والكشفِ عن مكنوناتِها النفسيّة، وخصائصِها، وطبيعتِها ومستواها الاجتماعيّ، وبخاصّة في الروايةِ الواقعيّةِ ذاتِ الطّابَعِ المحلّيّ، حيثُ تتعدّدُ مستوياتُ الخطابِ الرّوائيّ ومستوياتُ اللغةِ وفقاً لمستوى الشخصيّاتِ في بيئةٍ متعدّدةِ الطّبقاتِ الاجتماعيّةِ المُتعايِشةِ فيما بينَها. انطِلاقاً من ذلك ندركُ أنّ وجودَ مُستوىً لغويّ وسيط بينَ الفُصحى والعامّيّة أمرٌ ضروريٌّ وحتميّ لاستمرارِها وحياتِها، وهوَ أمرٌ موجودٌ في كلّ اللغات. وهوَ نوعٌ من أنواعِ التطوّرِ الطّبيعي للُّغةِ وامتدادٌ لتكاملِ العقلِ والحِسّ عندَ البشر الناطقينَ بها والمُطوّرينَ لها. ففي كلِّ لُغةٍ لسانٌ فصيح وآخر عامّيّ. وما يمنحُ هذا المستوى الوسيط شفافيّةً ومصداقيّة أن يكونَ الأديبُ الذي يأخذُ على عاتقِهِ الكتابةَ فيه مُعايِشاً لهُ تجريباً وتجريداً. مِن هُنا نلمَس الصِّدقَ الفنّيّ في أعمالِ "أحمد يوسف داوود" الرّوائيّة الناطقة بلغةِ هذهِ البيئة، فُصحى وعامّيّة هيَ ابنةُ هذهِ الفصحى، عامّيّة أصيلة ومتجذّرة منها فرضتها حاجة السّياق لها.

أهمّيّة البحث وأهدافه:

إنَّ المكتبةَ اللغويّةَ بحاجةٍ اليوم إلى دراساتٍ تُعنى باللغةِ العربيّةِ ومُستوياتِها في إطارها الاجتماعيّ تماشياً معَ التطوّرِ الطبيعيّ للغات، وتفاعُلِها معَ متطلّباتِ الحياةِ المُستجدّةِ والمُتجدّدة. فالدّراساتُ السّابقةُ في هذا المجالِ تكادُ تقتصرُ على محاربةِ العامّيّةِ في الأدب، واتّهامها بتشويهِ الفُصحى ومُحاولةِ القضاءِ عليها، ما جعلها مُجحفةً بحقِّ العديدِ من اللهجاتِ العاميّةِ غيرِ البعيدةِ عن روحِ الفصحى والمتجذّرةِ عنها كما لغةُ أهلِ الرّيفِ السّاحليّ السّوريّ. فمعظمُ هذهِ الدّراساتِ السّابقة ما زالت قاصِرةً عن تقديمِ فَهمٍ واضحٍ للغةٍ وسيطةٍ تكونُ جسراً بينَ الفصحى الرصينة لغةِ الأدباء والمفكّرينَ والمثقّفين وبينَ باقي الطبقاتِ الاجتماعيّةِ الأقلّ ثقافةً منَ الأولى. ومن هنا تكمنُ أهميّةُ هذا البحثِ في وقوفهِ عندَ ظاهرةِ اللغةِ الوسطى في رواياتِ الأديب "أحمد يوسف داوود"، والتي فرضَها السّياقُ وحاجتُهُ لها، وما قدّمتهُ للرّوايةِ الواقعيّةِ السّوريةِ من تغييرٍ وتطوّر، بوصفِها شكلاً لُغويّاً يدحضُ ما قيلَ سابقاً من أنّ اللهجاتِ العامّيةَ من دونِ استثناء هدفُها تهميشُ الفُصحى وإلغاؤها، ما دفعَ البحثَ إلى النظرِ باهتمامٍ إلى هذا المُستوى اللُّغويّ في أعمالِ "داوود" من حيثُ إنّها جاءَتْ في هذا المجالِ حيويّةً هادِفة، منبثقة عنِ البيئةِ الريفيةِ التي ولدَ ونشأ فيها. فجاءَ حوارهُ في لغةٍ وسطى هادِفة إلى الالتزامِ بهُويّةِ الفصحى من جهة، والنظرِ في هذا المُستوى اللغويّ في لغةِ أهلِ الرّيفِ المتجذّرةِ عنِ الفصحى، وغيرِ البعيدةِ عن روحِها، كالعامّيّةِ المُستخدمةِ في ثنايا الرواياتِ التي تتحدثُ عنِ الريفِ بكلِّ تفاصيله من

[1] - عيد، محمد. *المظاهر الطارئة على الفصحى*، دار الشؤون الثقافيّة، بغداد، 1986م، ص100.

جهةٍ أخرى والّتي طُعّمتِ الفصحى بها. هذا المستوى الوسيط الذي قد يكون جِسراً بينَ الفصحى والعامّيّة، بهدفِ ترقيةِ العامّيّةِ الأصيلةِ المُتداولَةِ على لسانِ أهلِ الرّيفِ السوريّ، وتبسيطِ الفُصحى تبسيطاً لا يمَسُّ بأصالتها للوصولِ إلى مُستوىً لغويّ يصلُ مختلفِ القرّاء.

منهجية البحث:

لقدِ اتّبعَ هذا البحثُ المنهجَ الاجتماعيّ من حيثُ قدرتُهُ على رصدِ الظّواهرِ الواقعيّةِ بدقّة، والتّركيزُ على البُعد الاجتماعيّ للنصّ، وارتباطُهُ بقراءةِ النّصوصِ الأدبيّةِ وتحليلِها، منفتحاً بذلكَ على المناهجِ النقديّةِ الأخرى من مثل المنهج النفسيّ، والوصفيّ التّحليليّ سبيلاً إلى استنباطِ ما في الرِّواياتِ المدروسةِ وكون النّص الرّوائي هوَ نصٌّ مفتوح وقابِل لقراءاتٍ عديدة.

النتائج ومُناقشة:

أوّلاً_ مفهومات نظريّة:

اللُّغة لُغةً:

اللُّغة مِن" لَغَا يَلْغُو لَغواً "، أي قالَ باطِلاً. يُقال: لَغَوتُ باليمينِ. واللَّغا: الصَّوت، مثلُ الوغا. ويُقال أيضاً: لَغيَ بهِ يَلغَى لَغَاً، أي لهجَ بهِ. واللُّغة أصلُها (لُغَيٌ أو لُغَوٌ)، والهاء عِوَض، وجمعُها (لُغىً) مثلُ بُرَةٍ وبُرىً، و(لُغاتٌ) أيضاً)[1]. و(لَغَا) قالَ باطِلاً. و"اللَّاغية" اللَّغوُ. و(اللُّغة) أصلُها لُغَيٌ أَو لُغَوٌ وجَمعُها (لُغىً) مِثلُ بُرَةٍ وَبُرىً. وَ(لُغَاتٌ) أيضاً. والنِّسبَةُ إلَيها (لُغَوِيٌّ) ولا تَقُلْ لَغَوِيٌّ[2]. قالَ اللَّهُ تعالى: {لا تَسْمَعُ فِيها لَاغِيَةً}[3]، أي كلِمةً ذاتَ لَغْوٍ.

وقالَ "العَجاج":

"وَرَبِّ أَسرابِ حَجيجٍ كُظَّمِ عَنِ اللَّغا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ"[4]

وهوَ اللَّغوُ واللَّغا، ما لا يُعتَدُّ بهِ مِن كلامٍ وغيرِهِ.

وجاءَ في لسانِ العرب: "اللَّغوُ واللَّغا: السَّقط وما لا يُعتَدُّ بِهِ منَ الكلامِ وغيرِهِ، ولا يُحصَلُ مِنهُ على فَائِدةٍ أَو نَفعٍ.

قالَ الشَّافعيّ: اللَّغوُ في لِسانِ العَرَبِ الكَلامُ غَيرُ المعقودِ عليهِ، وَجِماعُ اللَّغوِ هوَ الخَطأُ.

وجاءَ في "مقاييسِ اللُّغة": "اللّغا هوَ اللَّغوُ بعَينهِ، والفُقهاء يقولونَ: هوَ قولُ الرَّجُلِ لا واللَّهِ، وبلى واللَّهِ. قالوا: فيمينُهُ لَغوٌ، لأنَّهُ لم يتعمَّدِ الكذِبَ"[5]. وَ"لَغَا بِكذا إذا تَكَلَّمَ بِهِ"[6].

---

[1] - الجوهري، (اسماعيل بن حمّاد، ت 398ه). *الصّحاح تاج اللغة وصِحاح العربية*، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، (بيروت – لبنان)، ط4، 1990م، الجزء السادس، ص2484، مادة (لَغَا).

[2] - الرّازي، (مُحمّد بن أبي بكر بن عبد القادر). *مُختار الصّحاح*، مكتبة لُبنان، بيروت، ص 256.

[3] - القرآن الكريم. سورة الغاشيَة، الآية (11).

[4] - العجّاج، (عبد الملك بن رؤبة). *ديوان العَجّاج*، تحقيق: الدكتور عبد الحفيظ السَّطلي، مكتبة أطلس، دمشق، الجزء الأول، ص 456.

- يُنظَر: الجواليقي، (موهوب بن أحمد). *شرح أدب الكاتب*، قدّم له: مصطفى صادق الرّفاعي، عنيت بنشره: مكتبة القدسي، القاهرة، 1350ه، ج1 / ص381.

[5] - ابن فارس، (أبو الحُسَين أحمد، ت 395ه). *مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، 1972م، الجزء الخامس، ص255.

[6] - مجمع اللغة العربيّة. *المعجم الوسيط*، مصر، ط3، 2004م، ص831.

يقولُ "الزّمخشريّ": "لَغا فُلانٌ بِلَغوٍ، وتكلَّمَ باللَّغوِ واللَّغا، زاغَ عنِ الصَّوابِ وضَغَا، وتكلَّمَ بالرَّفثِ واللَّغا، ولَغَوتُ بِكَذا لفظتُ بهِ وتكلَّمتُ، وإذا أردتَ أن تَسمعَ منَ الأعرابِ فاستَغِلَّهُم فاستَنطِقهُم، وسمعت لغواهُم... ومنهُ اللُّغة، وتقول: لُغَةُ العربِ أفصحُ اللغاتِ، وبلاغتُها أتمُّ البلاغاتِ"[1].

مفهومُ اللُّغة اصطِلاحاً:

لقدِ استُعمِلَ مُصطلحُ اللُّغةِ لأوَّلِ مرَّةٍ عِندَ العربِ في أَواخرِ القَرنِ الثَّاني للهجرة"، وكانَ يدُلُّ في القَرنِ الأوَّلِ على المادَّةِ اللُّغَويَّةِ، أي ما جَمَعَهُ الرُّواةُ منَ البادية عنِ العَرَبِ الفُصَحاءِ بعدَ ظُهورِ اللَّحنِ، ولَمْ يُطلقِ الرُّواةُ الَّذينَ اشتغَلوا بجمعِ المُعطَياتِ اللُّغَويّةِ مُصطلحَ "لُغَويّ" إلَّا في القَرن الرَّابع الهِجريّ"[2]، حيثُ "إنَّ العربَ القُدَماء وفي العُصور الجاهليَّة وصَدر الإسلام لَم يكونُوا يُعبِّرونَ عمَّا نُسمِّيهِ نحنُ باللُّغة إلَّا بكلمةِ اللِّسانِ، تِلكَ الكلِمَةُ المُشتَرَكَةُ اللَّفظِ والمَعنى ومعظم اللُّغاتِ السّاميَّة شقيقات اللُّغةِ العربيَّة، وقد يستأنسُ هذا الرَّأيُ بما جاءَ في القُرآنِ الكريمِ منِ استعمالِ كلمةِ اللِّسانِ وحدِها وبمعنى اللُّغة نحوَ ثمان مرَّات"[3]، وأكثر ما وردَ بمعنى اللغو هوَ "القولُ الباطلُ"، ومِن ذلكَ قولُهُ تَعَالى:{وإذا سَمِعُوا اللَّغوَ أَعرَضوا عَنهُ وقَالوا لَنا أعمالُنا وَلَكُم أَعمَالكُمْ}[4]، وقوله تعالى:{والَّذينَ لا يَشهَدونَ الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِراما}[5]. كما وردَت لَفظةُ "اللَّغوِ" بمعنى اليمينِ الَّتي لا يعقدُ عليها القلب، وإنّما خروجُها منَ اللِّسانِ من دونِ قصدٍ أو تعمُّدٍ، وذلكَ في الآيات الكريمات، ومنها: {لا يُؤاخذكمُ اللَّهُ باللَّغوِ في أيمانكُم ولكن يُؤاخِذُكُم بِما عَقَّدتُمُ الأَيمانَ}[6]. كما وردت بمعنى "مكروهُ الكلامِ والسَّاقطُ منهُ" وذلكَ في قولهِ تعالى: {والَّذينَ هُمْ عَنِ اللَّغوِ مُعرِضون}[7]، واللَّغوُ هُنا بمعنى الشّرك. وفي قولهِ تعالى أيضاً {لا تِسمَعُ فيها لاغِيَة}[8]، أي لا يمكنُ أن تسمعَ في الجنّةِ كلاماً غيرَ مَرضيّ.

وقالَ "ابنُ جنَي" في بابِ القَولِ على اللُّغةِ وما هيَ: " أمَّا حَدُّها فإنَّها أَواتٌ يُعبِّرُ بِها كُلُّ قَومٍ عَن أَغراضِهِم. هذا حدُّها. وأمَّا تصريفُها ومعرِفةُ حُروفِها فإنَّا فُعلَة مِن لَغَوتُ؛ أي تكلّمتُ وأَصلُها لُغوَة ككُرة، وَقُلَة، وَثُبة، كُلُّها لاماتُها واوات"[9]. وتعريفهُ هذا يتضمّن العناصر الأساسيَّة للُّغة، ويوضّح الطّبيعة الصّوتيَّة للُّغة، ويؤكّد أنَّ اللُّغة أصوات)، مُغفِلاً أنَّها ليست فقط أصوات، وإنّما قد تكونُ غيرَ ذلكَ من إشاراتٍ، ما يجعلُ الأصواتَ والتَّعبيرَ الكلاميَّ مجرّدَ وظيفةٍ من وظائفها المتعدّدة للتَّعبيرِ عنِ الفكر، ما جعلَ تعريفَهُ يلتقي معَ ما قالَهُ "إبراهيم أنيس" في توضيحهِ مفهومها بأنَّها "نِظامٌ عُرفيٌّ لرُموزٍ صَوتيَّةٍ يستغلُّها النَّاسُ في الاتّصالِ بعضهُم ببعضٍ"[10].

وقالَ "ابنُ حزمٍ" في اصطلاحِها: "ألفاظٌ يُعبَّرُ بها عنِ المُسمَّياتِ وعنِ المعاني المُرادِ إفهامُها، ولكُلِّ أُمّةٍ لُغتُهُم. قالَ عزَّ وجلَّ {وَمَا أرسَلنَا مِن رسولٍ إلّا بِلسانِ قَومهِ ليبيّنَ لَهُم}"[11]. ما يؤكّدُ على أنَّ العربَ قديما كانت تعبّرُ عن اللغة متعدّدة، وكانت تُسمّى قديماً ب "اللّسان".

---

[1] - الزمخشري، (محمود بن عمر). *أساس البلاغة*، دار صادر (بيروت - لبنان)، ط1، 1979م، مادة (لغَوَ)، ص 568.

[2] - مادن، سهام. *الفصحى والعامية وعلاقتهما في استعمالات الناطقين الجزائريين*، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ط)، 2011م، ص55.

[3] - أنيس، إبراهيم. *في اللهجات العربية*، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1955م، ص17.

[4] - القرآن الكريم، سورة القصص، الآية 55.

[5] - القرآن الكريم، سورة الفُرقان، الآية 72.

[6] - القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية 89.

[7] - القرآن الكريم، سورة المؤمنون، الآية 3.

[8] - القرآن الكريم، سورة الغاشية، الآية 11.

[9] - ابن جنّي، (أبي الفتح عثمان، ت 392ه). *الخصائص*، تحقيق: محمد علي النّجّار، المكتبة العلميَّة، الجزء الأول، ص 33.

[10] - أنيس، إبراهيم. *اللغة بين القومية والعالمية*، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1970م، ص11.

[11] - ابن حزم، (علي بن أحمد بن سعيد، ت 456ه). *الإحكام في أصول الأحكام*، تحقيق: أحمد محمد شاكر، قدّمَ لهُ: إحسان عبّاس، دار الآفاق الجديدة، (بيروت - لبنان)، ط2، 1983م، الجزء الأول، ص 46 .

وقالَ ابنُ خلدون: "واعلَم أنَّ اللُّغاتِ كُلُّها مَلَكاتٌ شبيهةٌ بالصّناعة، إذ هيَ مَلَكاتٌ في اللِّسانِ للعبارةِ عنِ المعاني، وجَودَتِها وقُصورِها بحَسبِ تَمامِ المَلَكَةِ أو نُقصانِها. وليسَ ذلكَ بالنظرِ إلى المُفرداتِ، وإنَّما هوَ بالنّظرِ إلى التّراكيبِ"[1]، ممَّا يقودُنا إلى أنَّ مصطلحَ "اللُّغةِ" مُشتملٌ على عدّةِ مصطلحاتٍ تدورُ في حقلها المفهوميّ كالصَّوتِ واللَّفظِ واللِّسان.

ورآها "دي سوسير "أنَّها "نِتاجٌ اجتماعيٌّ لِمَلَكَةِ اللِّسانِ ومجموعةٌ منَ التّقاليدِ الضَّروريَّةِ الَّتي تبنَّاها مُجتَمعٌ ما، لِيُساعدِ أفرادَهُ على مُمارسةِ هَذهِ المَلَكَة"[2]، وهيَ "شيءٌ مكتسَبٌ تقليديّ"*.

مفهومُ الفَصاحة:

عندَ الحديثِ حولَ الفصاحةِ لا بدَّ منَ التمييزِ بينَ معنييها: الفصاحةُ اللُّغويَّة، وهيَ موضوعُ اللُّغويّينَ والنُّحاةِ، وتعني وفقَ منظورهم أداءَ الكلامِ وفقَ معاييرَ نحويَّة مُحدَّدة تقي الوقوعَ في اللَّحنِ، والفصاحة البيانيّة، وتعني قدرة المتكلّم على إنشاء كلام مؤثّر في السّامع. وبسببِ اختلاطِ القبائلِ العربيَّةِ في الجاهليَّةِ بالأعاجمِ، أُخذتِ اللُّغةُ الفصيحةُ منَ الأعرابِ القاطنينَ في بوادي نجد والحجاز.

وقد كانَ الإنسانُ العربيُّ في القديمِ يتكلَّمُ الفُصحى بفِطرتِهِ وسجيَّتِهِ دونما حاجةٍ لِمعرفةِ أصولِ قواعدها النحويَّة والصَّرفيّة.

الفصحى لُغةً:

"فَصُحَ اللَّبَنُ فَصْحاً، وفَصاحةً: خَلصَ مِمَّا يَشوبُهُ فأُخِذتْ عنهُ رغوتُهُ وبقيَ خالِصُهُ. وَفَصُحَ الرَّجُلُ: انطلقَ لِسانُهُ بِكلامٍ صحيحٍ واضحٍ. ويُقال: فَصُحَ الأعجميُّ: جادَت لُغَتُهُ فلم يَلحَن. فهُوَ فَصْحُ (ج) فِصاح، وهوَ فَصيحٌ (ج) فُصَحاء. ويُقال: أفصحَ الأمرُ: وَضَحَ. والفصاحة: البَيَان وسلامةُ الألفاظِ منَ الإبهامِ وسوءِ التَّأليف"[3].

و "رَجُلٌ فصيحٌ وكلامٌ فصيحٌ؛ أي بليغٌ. ولِسانٌ فصيحٌ، أي: طَلقٌ، ويُقال: كلُّ ناطقٍ فصيحٌ"[4].

و "الفصيحُ في اللُّغةِ: المُنطلِقُ اللّسانِ في القَولِ الّذي يعرِفُ جيّدَ الكلامِ مِن رديئه"[5].

ومن هذهِ التّعريفاتِ اللُّغويّةِ للفصاحةِ يتبيّنُ أنَّ معناها اللّغويَّ الشّاملَ هوَ "البَيانُ والوضوحُ"[6].

الفُصحى اصطلاحاً:

اللغةُ الفُصحى هيَ اللغةُ الرّسميّة، وعنصرٌ مهمٌّ في الحياةِ الاجتماعيَّة، وأداةُ التّواصلِ والتّعبيرِ، ورمزاً للهُويَّةِ الفرديّةِ والاجتماعيّةِ والثّقافيَّة، فهيَ "لغةُ القرآنِ الكريمِ والتُّراثِ الشّعبيِّ جُملةً، والّتي تُستَخدَمُ اليوم في المعاملاتِ الرّسميَّة، في تدوينِ الشّعرِ والنّثرِ والإنتاجِ الفكريّ عامّة، أمّا العامّيّة فهيَ تُستخدَمُ في الشّؤونِ العاديَّةِ، والّتي يجري بها الحديثُ اليوميّ"[7]. كما أنّها أوّلُ لُغةٍ عُرِفَ بها العربُ وتعاملوا بها، وهيَ اللغةُ الّتي نزلَ بها القُرآنُ الكريم ولغةُ الدّينِ الإسلاميّ الّتي حملت تعاليمَهُ وقواعدَهُ وعُلومهُ المُختلِفة من نَحوٍ، وصرفٍ وبلاغةٍ. كما أنّها اللغةُ "الّتي تُوافِقُ المشهورَ مِن كلامِ العربِ وَسَلِمَت منَ اللَّحنِ والإبهامِ وسوءِ الفَهم"[8].

---

[1] - ابن خلدون، (وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد ت 808ه). *مقدمة ابن خلدون*، تحقيق: عبد الله محمد الدّرويش، دار يعرُب، دمشق، الطبعة الأولى، 2004م، الجزء الثاني، ص378.

- يُنظر المصدر السّابق، ص 28.

[3] - إبراهيم أنيس وآخرون. *المعجم الوسيط*، إشراف: حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، القاهرة، مكتبة الشُّروق الدوليَّة، الطبعة الثانية، 1972م، ص 960.

[4] - الجوهري. *الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربيّة*، ص 890.

[5] - ابن منظور. *لسان العرب*، الجزء الحادي عشر، ص 186.

[6] - الحاج صالح، عبد الرّحمن. *السّماع العلمي اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة*، موفم للنّشر، الجزائر، 2007م، ص 29-41.

[7] - يعقوب. إميل بديع. *فقه اللغة العربية وخصائصها*، دار الثقافة الإسلامية، (بيروت، لبنان)، ص144.

[8] - عكاشة، محمود. *علمُ اللُّغة (مدخل نظري في اللغة العربيّة)*، دار النّشر للجامعات، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006م، ص 96.

وهناكَ العديدُ منَ التّعاريفِ الّتي تتحدّثُ في مفهومِ الفصاحة، ولكنَّ عدداً غيرَ قليلٍ مِنها لم يميّز ويوضّح معنى الفصاحة إلّا من جانبٍ واحد، مُغفِلاً معنييها اللّغوي والبياني.

وقد فصل الجاحظ بينَ الفَصاحة اللُّغويَّة والفَصاحة البيانيَّة في كتابهِ "البيان والتبيين"، إذ يقولُ: "فمَن يزعمُ أنّ البلاغة أن يكونَ السّامعُ يفهمُ معنى القائل، جعلَ الفصاحةَ واللكنةَ، والخطأَ والصَّوابَ، والإغلاقَ والإبانةَ، والمَلحونَ والمُعربَ كلّهُ سواءَ وكُلُّهُ بياناً"[1].

والفصاحة بمفهومِها الاصطلاحيّ: هيَ "طلاقةُ اللّسانِ، أي الخُلوصُ من عُقدةِ اللّسان"[2]. ويؤكّد ذلكَ قبلاً ما جاءَ في القرآنِ الكريمِ قولهُ تعالى: {وَقُلْ رَبِّ اشرَحْ لِي صَدرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمرِي (26) واحْلُلْ عُقدَةً مّنْ لِسَانِي(27) يَفْقَهُوا قَولِي (28)}[3]. كما أنَّها لغةُ القرآنِ والحديث، ولغةُ الأمّة، فهيَ "مُستوى منَ الأداء اللُّغوي مُلتزم بالنّمط القرآني حِفاظاً على شكلِ الكلمةِ العربيَّةِ وزناً ومعنى، ووصلاً ووقفاً وضبطاً والتزاماً بالمُعجم الّذي يُشير إلى الجائز والمُمتنع، معَ عدمِ تجاهلِ ما أوصت بهِ المجامِع العربيَّة اللُّغويَّة "[4].

العامّيّة لغةً واصطلاحاً:

العامّيّة لُغةً:

"العامّةُ منَ النَّاسِ: خِلافُ الخاصَّة. جَمع (عَوام). ويُقال: جاءَ القومُ عامّة: جميعاً. والعامّيُّ: المنسوبُ إلى العامَّة. والعامّيَّةُ: لُغةُ العامَّة، وهيَ خِلافُ الفُصحَى"[5].

والعامّيّة لفظة مأخوذة من لفظ "العامّ" الّذي يُقابل لفظ "الخاصّ". جاءَ في "لسانِ العرب": "العامَّةُ خِلافُ الخاصَّة"[6]. وقدِ وقدِ استعملتِ العربُ النّسبةَ منهُ، فأصبحَ العامّيّ للمذكّر، والعامّيّة منهُ للمؤنّث ومنهُ وُصِفتِ اللغةُ المؤنّثة بأنَّها العامّيَّة. "ويُقال: رَجُلٌ عُمِّيّ ورَجُلٌ قُصرِيٌّ. فالعُمّيّ: العامّ، والقُصريّ: الخاصّ "[7]. و "عمَّ الشّيءُ يَعُمُّ عُموماً: شملَ الجماعة"[8].

العامّيّة اصطِلاحاً:

كثيرةٌ ومُختلفةٌ هيَ التّعريفاتُ الّتي وردت لِلعامّيّة اصطِلاحاً، وجميعُها تكادُ تتّفقُ على تعريفٍ واحدٍ. فالعامّيّة هيَ اللغة التي يتعاملُ بها أفرادُ شعبٍ معيّن في حياتهم اليوميّة للتّعبيرِ عن أغراضهم، وهيَ اللهجة المنطوقة في عصرنا الحاضر. وهيَ منبثقةٌ عنِ الفصحى إذا ما بحثنا في أصولِ أغلبِ كلماتها الدّارجة المُستعملة. وقد أصابتها تغييراتٌ كثيرة معَ مرورِ الزمن نتيجةَ عواملَ عِدّة كاختلاطِ الشّعبِ بعضه ببعض، وبغيره من باقي الشّعوب، وتأثير البيئة المكانيّة على كلّ شعب على حدة. يقول "إميل بديع يعقوب" إنَّ اللغةَ العامّيّة هيَ "تلكَ اللغة الّتي تُستخدَمُ في الشُّؤونِ العاديَّة، والّتي يجري بها الحديثُ اليوميُّ"[9].

---

[1] - الجاحظ. *البيان والتّبيين*، تحقيق وشرح: ع السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الجزء الأول، ص 162.

[2] - الحاجّ صالح، عبد الرّحمن. *السّماعُ اللّغويّ عند العربِ ومفهومُ الفصاحة*، ص 53.

[3] - القرآن الكريم. *سورة طه*، الآيات (25،26،27،28).

[4] - عبد الصَّبور، شاهين. *التحدّيات الّتي تُواجه اللغة العربيّة*، المغرب، المنظّمة الإسلاميّة للتّربية والتّعليم والثّقافة، ايسيسكو. ايسيسكو.http://www.isesco.org.ma/pub/arabic/Langue_arabe/p9.htm

[5] - مجمع اللغة العربية. *المعجم الوسيط*، الجزء الثاني، ص 629.

[6] - *لسان العرب*. دار صادر، الجزء الثاني عشر، ص 431.

[7] - الأزهري، (محمد بن أحمد). *تهذيب اللغة*، حققه وقدّم له: عبد السّلام محمد هارون، راجعه: محمد علي النجّار. الدّار المصريّة العامّة للتّأليف والتّرجمة، (د.ط) (د.ت)، الجزء الأول، ص 121.

[8] - الجوهري. *الصّحاح تاج اللغة وصِحاح العربيّة*، ص 813.

[9] - يعقوب، إميل بديع. فقه اللغة العربيّة وخصائصُها، دار العلم للملايين، (بيروت – لبنان)، الطبعة الأولى، 1982م، ص144، 145.

كما أنَّ العامّيّة لغة قائمة بحدّ ذاتها، وأداة مهمّة من أدوات التّعبير الخاصّة بكلّ جماعة إنسانيّة تعيش في بيئة مختلفة عن البيئات الأخرى والمعبّرة عن مكنوناتِ أنفسهم، ولغتهم المنبثقة عن طبيعة تلك البيئات، ف "العامّيّة لغة قائمة بذاتها، حيّة، متطوّرة نامية، تتميّز بجميع الصّفات الّتي تجعلَ منها أداةً طبيعيّة للفَهم والإفهام والتّعبير عن دواخل النّفس، وإنَّ لها قواعدُها وأصولُها. وإذا شذَّ عنها شاذٌّ فكأنّما خرجَ عن طريقةٍ مُقرّرة"[1]. كما أنَّ اللغة العامّيّة "هيَ تلكَ اللغة الّتي نتخاطب بها في كلّ يوم عمّا يعرض لنا من شؤون حياتنا مهما اختلفت أقدارُنا ومنازلُنا، فهيَ لسانُ المتعلّمينَ وغيرُ المتعلّمين، على اختلافِ فئاتهم وَحِرَفِهِم"[2].

اللَّهجة لُغةً واصطِلاحاً:

كما ذكرنا سابقاً أنَّ بعضَ اللُّغويّينَ المُحدَثينَ يتّخذونَ لمُصطلحِ "العامّيّةِ" أسماءَ ومصطلحاتٍ عدّة تتقاطعُ معَه، ومنها مصطلحُ "اللَّهجة" كونها تلقائيّة لا تخضع إلى ضوابط، وإنّما تتغيّر تِبعاً لتغيّر الظروف المُحيطة بها. لذا فإنَّ توضيحَ مفهومِ "اللّهجة" يوضّحُ مدى تداخلها مع مصطلح "العاميّة" من ناحيةِ المفهوم.

"اللّهجة" لُغةً:

"اللهجة من لَهَجَ، نقول: لَهِجَ بالأمرِ لَهَجاً، وَلَهوَجَ وألهَجَ، كلاهُما: أُولِعَ بالأمرِ واعتادَهُ، وأَلهَجتُهُ بهِ. ويُقال: فُلانٌ مُلهَجٌ بهذا الأمرِ، أي مُولَعٌ بهِ. واللَّهْجَةُ واللَّهَجَةُ: طَرَفُ اللِّسانِ، واللَّهْجَةُ واللَّهَجَةُ: جَرْسُ الكلامِ، والفَتحُ أعلى.

يُقال: فُلانٌ فصيحُ اللَّهْجَةِ واللَّهَجَةِ، وهيَ لُغَتُهُ الّتي جُبِلَ عليها فاعتادَها ونَشَأَ عليها"[3].

و"لَهِجَ" بالكسرِ، بهِ يلهَجُ لَهْجَاً إذا أُغرِيَ بهِ فثابرَ عليه. ولَهوَجَ الرَّجُلُ أَمرَهُ لَهْوَجَةً، وهوَ ألّا يُبرِمَهُ"[4]. و"سُمّيت لهجةً لأنَّ كُلّاً يَلهَجُ بِكلامِه"[5]. ويُقال: "فُلانٌ فصيحُ اللّهجة، وصادِقُ اللّهجة. وطريقةٌ من طُرُقِ الأداءِ في اللُّغة"[6].

اللَّهجة اصطِلاحاً: هيَ "لُغةُ الحديثِ الّتي نستخدمُها في شؤونِنا العاديّة وجرى بها الحديثُ اليوميّ، وهيَ الصّورةُ الّتي وصلتْ إليها اللُّغةُ في الوقتِ الحاضرِ في ألسنةِ النّاطقينَ بِها الّتي تختلفُ عنِ الفُصحى اختِلافاً بَيِّناً في كثيرٍ مِن مظاهرِ أصواتِها ومُفرداتِها ودلالةِ ألفاظِها وأساليبها وقواعدِها..."[7].

و"يُطلَقُ مصطلحُ اللهجة على مجموعة منَ الصّفات اللُّغويّة تنتمي إلى بيئة خاصّة ويشترك فيها أفرادُ البيئة. وبيئةُ اللّهجةِ هيَ جزءٌ من بيئةٍ أوسعُ وأشمَلُ تضمُّ عِدّةَ لَهَجاتٍ، لكُلٍّ مِنها خصائِصُها، لكنَّها تشتركُ جميعاً بجُملةٍ منَ الظّواهرِ اللُّغويّةِ الّتي تُيسّرُ اتّصالَ أفرادِ هذهِ البيئةِ بعضهُم ببعض، وفَهمِ ما قد يدورُ بينهُم مِن حديثٍ فَهماً يتوقّفُ على قَدرِ الرّابِطةِ الّتي تَربِطُ بينَ هذهِ اللّهجات"[8].

ثانياً_ "اللغة الوُسطى" في الرّواية الرّيفية (روايات أحمد يوسف داوود أنموذجاً):

إنَّ اللغة ظاهرة اجتماعية في صورةٍ تلقائيّة، من وضعِ الإنسانِ، تتناقلُها الأجيال. وكما عبّرَ عنها "دي سوسير" إنَّها مؤسَّسة اجتماعية" ليست فرديّة تتعلَّق بعواملِ النُّطق وأصواتِ الكلام، ولكنّها ظاهِرة سيكولوجيّة اجتماعيّة، ثقافيَّة

[1] - فريحة، أنيس. *اللهجات وأسلوب دراستها*، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، 1989م، ص97، 98.
[2] - رضا، أحمد. *قاموس ردّ العامّي إلى الفصيح*، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية 1981م، ص5.
[3] - ابن منظور. *لسان العرب*، الجزء الثالث عشر، ص 241، 242.
[4] - الجوهري. *الصّحاح تاج اللغة وصِحاح العربيّة*، الجزء الأوّل، ص 339، 340.
[5] - ابن فارس. *مقاييس اللغة*، الجزء الخامس، ص 214، 215.
[6] - مجمع اللغة العربية. *المُعجم الوسيط*، ص 841.
[7] - وافي، علي عبد الواحد. *فقه اللغة*، دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة، 2004م، ص 153.
[8] - أنيس، إبراهيم. *في اللهجات العربيّة*، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص15.

مُكتسَبة لاصِقة بيولوجيّة مُلازِمة للفرد، تتألّف مِن مجموعة رُموز صوتيّة لُغويّة اكتُسِبت عن طريقِ اختيارِ معاني مُقرَّرة في الذّهن، وبهذا النّظام الرّمزيّ الصّوتيّ تستطيع جماعة ما أن تتفاهمَ وتتفاعل"[1].

واللغة الأمّ لا تستطيعُ أن تستمرَّ في حياتِها في كُلِّ البيئاتِ وتحتَ كُلِّ الظُّروف دونَ تغيُّرٍ أو تطوُّر. من هنا التطوّرُ اللُّغويّ القسريّ أدَّى إلى وجود مستوى لغوي وسيط بينَ الفُصحى والعامّيّة، وهوَ ظاهرة ليست خاصّةً بلُغةٍ واحدة، بل هيَ موجودةٌ في كُلّ اللغات، كما أنَّها امتدادٌ للعقلِ والحِسِّ لدى البشر، ففي كُلّ لُغةٍ لِسانٌ عامّيّ، وآخرُ فصيح. وأهمّ الأعمال الأدبيّة العالمية نجدُ فيها مُصطلحاتٍ وكلماتٍ كُبيت وتُكتَب بالعامّيّة لضروراتٍ فنّيّة تخدِم سياقَ النّصّ.

ولُغتُنا العربيَّة لُغة غنيّة لا تعيش في فراغ، فهيَ تتبادل وتتعامل معَ لهجاتِها، وتأخذ مِنها، وهيَ غير جامِدة، فاللغة "كائن حيّ لا يبقى على حالٍ منَ الرُّكودِ والجُمود، بل إنَّها تتجدَّد، وتدخلُها تعبيرات وتراكيب في حين تموتُ أخرى، أو تُصبح مُتكلِّفة أو مُستغلِقة على الإفهام"[2]. ومن هنا شرعَ الكثيرُ منَ الأدباءِ العرب بتطعيمِ رواياتهم بالعامّيّة إلى جانبِ الفُصحى، أمثال "نجيب محفوظ"، و"يوسف إدريس"، و"توفيق الحكيم"، و"يوسف السّباعي" وكثر ممّن استخدموها في الحوارِ والسَّردِ، ما أسهمَ بتوسّعِ انتشارِ أعمالهم القصصية والروائية بسببِ اعتمادِها العاميّة إلى جانبِ الفصحى، انطِلاقاً من أنَّ الحواراتِ الطّويلة المكتوبة باللغةِ الفصحى قد لاتصلُ إلى الشّريحةِ الأكبرِ منَ الناس. كما أنَّهُ منَ الضّروريّ في الحواراتِ الطّويلة الاختزالُ واستخلاصُ المُجدي منها باستخدامِ لُغةٍ مفهومةٍ ومُعبّرة، مقبولةٍ لدى القرّاءِ على اختلافِ مستوياتهمُ الثّقافيّة، لُغة تميلُ إلى السّلاسةِ واليُسر "تُقرّبُ الفُصحى منَ الحياةِ والعصرِ، وتستفيدُ منَ العامّيّةِ وتراكيبِها لإعطاءِ الصّنيعِ الفنّيّ ظِلالاً إبداعيَّةً تحمِلُ نكهةً شعبيَّةً حياتيَّة"[3]. فهذهِ اللغة عندما تقرّبُ الفصحى منَ الحياةِ العامّة تُضفي على الحوارِ طابعاً لغويّاً بسيطاً عامَّاً يُبعدهُ عنِ التكلُّفِ، ويسهمُ في إيصالهِ إلى مختلفِ شرائحِ الناسِ خاصّتهم وعامّتهم.

وأمرُ ظهورِ مستوى لغوي وسيط يجمعُ بينَ الاثنين فرضتهُ عواملُ عديدة منطقيّة، تمثّلت في التطوّرِ اللغويّ في مستوياتِ اللغة، واختلافُ البيئاتِ داخلَ المجتمعِ الواحدِ. فأبناءُ الرّيفِ مثلاً يتحدّثونَ بلهجةٍ تختلفُ عن تلكَ الّتي يتحدّثُ بها أبناءُ الباديةِ أوِ المدينة. والاختلافُ الطبقيُّ في المجتمع، كانَ لهُ دورٌ في ظهورِ هذا المستوى اللغويّ، إذ منَ الطّبَعيّ أن تعملَ كلُّ طبقةٍ على إيجادِ لُغةٍ خاصّةٍ بِها تُميّزُها عن غيرها من باقي الطّبقات.

كما أنّ توظيفَ العامّيّةِ في النّصِّ الأدبيّ، إنّما هوَ ترجمةٌ للواقعِ نفسِه ولغةُ حوارِ الشّخصيّاتِ الواقعيّةِ في تناولهم تفاصيلَ حياتهمُ اليوميّة. فللّهجةِ العامّيّةِ أوِ الدّارجةِ مسمّياتٌ عِدّة كما أطلقَ النقّادُ والباحثونَ عليها، ك "اللغة الوُسطى"، أو "اللغة الثالثة"، أو "المستوى اللغوي الثالث"، وأهمّ هذهِ التسميات "الوسيطُ بينَ الفصحى والعامّيّة". هذهِ اللهجة، أو هذا المستوى اللغويّ الوسيط أصبحَ لهُ فضاؤهُ الاجتماعيّ ومجالاتُهُ الخاصّة، حيثُ هناكَ فنونٌ شعبيّةٌ قائمةٌ عليه، كما الحكاية، والملحمة، والأسطورة، والشّعر الشعبيّ الّذي باتَ يُعَدُّ فَنّاً مِن فُنونِ الأدب.

فللحوارِ حضورٌ رئيسٌ وأساسٌ في العملِ الرّوائيِّ على وجهِ الخصوص، حيثُ يكتسبُ حيويّتَهُ من إبداعِ شخصيّاتٍ حيّة بتقلُّباتِها النّفسيَّة. ومن هنا خدمتِ اللهجة العامّية ذات الجذور الفصيحة الحوارَ الطّويلَ وفقَ حاجةِ شخصيَّاتِ الروايةِ لها، وتحديداً عندما نتحدّثُ عنِ الروايةِ الرّيفيّة، من حيثُ قدرتُها على التعبيرِ عن طريقةِ تفكيرِ بيئتِها الخاصّة بدلالاتِها العميقة، وذلكَ أثناءَ التّعبيرِ اللاشعوريّ عنِ الحالاتِ الإنسانيةِ من فرحٍ، وغضبٍ، وحزن، كما بعضُ الحالاتِ

---

[1] - يعقوب، إميل بديع. *فصول في فقه اللغة العربية*، المؤسسة الحديثة للكتاب، (طرابلس - لبنان)، الطبعة الأولى، 2008م، ص9.

[2] - وافي، محمد عبد الكريم. *منهج البحث في التّاريخ والتّدوين*، ليبيا، جامعة قار يونس، 1995م، ص136.

[3] - منيف، عبد الرحمن. *الكاتب والمنفى (هموم وآفاق الرّواية العربيّة)*، دار الفكر الجديد، الطبعة الأولى، (بيروت - لبنان)، 1992م، ص191.

كالاستشهادِ بأغنيةٍ شعبيّة، أو مَثَلٍ شعبيّ، أوِ التّعبيرُ عنِ الممارساتِ التّقليديّةِ الخاصّةِ بكلِّ بيئةٍ على حدة، والتي لا يمكنُ التّعبيرُ عنها إلّا من خلالِ العامّيّة. ومن هنا أجازَ الكثيرونَ منَ الكُتّابِ كتابةَ الحوارِ السّرديّ باللهجةِ العاميّةِ إلى جانبِ الفصحى، لأنّها أقربُ إلى الصدقِ الفنّيّ الواقعيّ، ولئلّا تبدو الروايةُ المكتوبةُ باللغةِ الفُصحى مُفتعلةً ومُمِلَّةً خاصّةً إذا كانَ أبطالُها لا يتكلّمونَ الفُصحى في تفاصيلِ يومهِم. وبما أنَّ العالمَ الروائيّ عالَمٌ مُتوازٍ معَ الحياةِ بكلِّ أشكالِها، وشخوصِها، وتعبيراتهم وحراكهم، يمكنُهُ استيعابُ هذا المُستوى الوسيط في الكتابة، فاللهجة الشّعبيّة جزءٌ أساسٌ منَ اليوميّات، وهي الأقدر على نقل الواقع والتعبير عنه بتفاصيله، ما يسهم إلى جانب الفصحى في تعميق الصورة الواقعية بكل ما تحمل من أبعاد نفسية واجتماعية وثقافية وسياسية.

إنَّ اللسانَ الدّارجَ العامّيّ إفرازٌ أفرزتهُ الفُصحى، وما يتحدث عنه هذا البحث الاستعمال العامّيّ الّذي لم يبتعد بدرجاتهِ عن أصولِ الفصحى ومقاييسِها وقواعدِها الأساسيّة، ولم يُبعِدها عن مدلولِها العربيّ السّليم، ولم يفقِدها هُويّتها، بلِ استمَّد عناصرَهُ منها، واقتصرَ التغيُّرُ في أغلبِهِ على الاستعمالِ بتغييرِ ترتيبِ الحروفِ، أو قلبِها، أو بتغييرِ حركاتِها، كما سنرى في روايات أحمد داوود، خاصّةً أنَّ واقع اللغة في الأدبِ العربيّ السّوري ليسَ واقعاً متعدّدَ اللهجاتِ كما في بعضِ الدولِ العربيةِ كالجزائرِ، والمغربِ وغيرها، الّتي كثُرتِ اللهجاتُ إلى جانبِ لغتهمُ الأمّ، بسببِ اختلاطها بلغاتٍ أخرى كالفرنسية والأمازيغيّة وغيرها، الأمر الّذي ساهمَ في الحفاظِ على الفصحى في الأدبِ العربيِّ السّوريِّ المُنعكسِ عنِ الواقعِ المُعاشِ، والّتي بقيت على حالِها دونما تغييرٍ كبيرٍ يهدّدها بتعدّدِ اللهجاتِ فيها. "إنَّ اللُّغة الّتي تتناولُها كلُّ الطّبَقاتِ هيَ الّتي تُعبِّرُ أصدقَ تعبيرٍ عنِ الانفعالِ والوجدانِ، وهيَ لُغةُ التُّراثِ الشّعبيّ، الّتي ما تزالُ تحتفظُ بحرارتِها وتستطيعُ أن تَنفذَ إلى أعماقِ النُّفوسِ والأشياءِ فتترُكَ أثَراً فيها"[1]، فالرّواية الحيّة هيَ الّتي تكونُ جريئةً في الاقترابِ منَ الواقعِ منَ العالَمِ الحيّ وفي ما يخصّ الرّوايةِ الواقعيّة، فإنَّ جوهرَها ينبعُ من تجربةِ الوعيِ الجماليّ، وامتِلاك الرّوائي القُدرة على تمثُّلِ الواقعِ والتّعبيرِ عنهُ، حيثُ تمتلكُ مصداقيَّتَها عندما يوظّفُ الأديبُ مَرجعيّاتهِ المعرفيَّة في النَّصّ، خاصّةً إذا كانَ الأديبُ ابنَ البيئةِ الّتي يتحدَّثُ عنها، فإنَّ توظيفهُ يكسبُ مصداقيّتهُ من كونهِ توظيفاً عالِماً وعارِفاً بروحِ هذهِ البيئةِ، وتاريخِها وتفاصيلِها.

والحوارُ أحدُ الأساليبِ الفنّيّةِ الأهمّ المطروقة في بناءِ النّصّ الرّوائيّ، بهدفِ إيجادِ أبعادٍ سرديّةٍ تنهضُ بهِ، وتأخذُ المُتلقّي إلى أجواءِ ما وراءَ النّصّ، في رحلةٍ تأمّليّةٍ تخدِمُ الرّاوي والنّصّ في آنٍ واحد. والتّنوّعُ والتّجديدُ في الخطابِ السّرديّ من أهمِّ ما يدفعُ في التّجربةِ الأدبيّةِ إلى الإبداع، وذلكَ عندما يكونُ مَنوطاً بفَهمٍ عَميقٍ ووعيٍ للواقعِ المُعاش، وتواصُلٍ معهُ ومعرفةٍ بتفاصيله، ما يُبرّرُ للأديبِ توظيفُ الأدواتِ السّرديّةِ المُناسبةِ والمُتوفّرةِ لديه لخدمةِ إبداعهِ ونصّه خاصّةً إذا كانَ الأديبُ مَصهوراً في بوتقةِ التّجربةِ الرّوائيّةِ الواقعيَّةِ المُعاشة.

ومن أهمّ هذهِ الأدوات هوَ المكوّن اللغوي، على اعتبارِ أنَّ اللُّغةَ هيَ الأداةُ والحامِلُ الموضوعيُّ لكُلِّ عملٍ أدبيّ. وبما أنَّ توظيفَ الحوارِ يختلفُ مِن عملٍ أدبيّ إلى آخر، كانَ لا بُدَّ في أعمالِ "أحمد داوود" الرّوائيّةِ الواقعيّة مِن توظيفِ حِوارٍ مِن نوعٍ خاصّ، للوصولِ إلى مكنوناتِ الشّخصيّاتِ الرّوائية، انطِلاقاً مِن أنَّ الحِوارَ "يُوظَّفُ في تطوُّرِ القِصَّةِ واستحضارِ الحَلَقاتِ المَفقودةِ فيها، إلّا أنَّ عمَلَهُ الحقيقيَّ هوَ رَفعُ الحُجُبِ عن مشاعرِ الشّخصيَّاتِ وأحاسيسِها وعواطفِها المُختلِفة"[2].

---

[1] - اليوت، (ت.س). *مقالات في النّقد الأدبي*، ترجمة: لطفية الزيّات، مكتبة الأنجلو المصريّة 1963م، ص 49.

[2] - سلّام، محمّد زُغلول. *دراسات في القصّة العربيّة الحديثة*، مُنشأة المعارِف، الاسكندريّة، (د.ت)، ص: 35 (بتقة سليم) ص95.

وعندما يكونُ النّصُّ الرّوائيُّ هوَ عَملٌ أدبيٌّ شعبيّ، يتحدّثُ عنِ الرّيفِ وبيئتهِ بعفويّتها، وبساطتِها، ناطَقٌ بلسانِ حالِها، وواقعِ حياتهم، كانَ لا بُدَّ مِنَ الغَوصِ في أغوارِ الشّخصيّاتِ الرّوائيّة للوصولِ إلى المكنوناتِ النّفسيّةِ والسّلوكيّة لسبرِ أغوارِها، والكشفِ عن اتّجاهاتِها وأزماتِها الدّاخليّة والخارجيّة من خلالِ أهمِّ الأدواتِ الّتي تُوصِلُ إلى ذلك وهيَ لُغةُ الشّخصيّاتِ نفسها.

ولمّا كانَ الأديب "أحمد يوسف داوود" وليدَ هذهِ البيئةِ الرّيفيّة، حاولَ في رواياتهِ الغوصَ في أعماقِ هذهِ البيئة، وواقعِها المُعاش، وسبرِ جميعِ الحالاتِ النّفسيّةِ والاجتماعيّةِ التي تُعايشُها شخوصُها، لذا عمدَ إلى بناءِ تجربةٍ روائيّةٍ تجريبيّةٍ واقعيّة تصوّرُ واقعَ الرّيفِ بكلِّ ما فيهِ، وهمومَ شخوصهِ وأزماتهم النّفسية باعتمادهِ لُغةً بسيطةً ومفهومة، وحِواراً "يلزَمُ أن يكونَ دقيقاً، هادِفاً إلى غايةٍ مَرسومَةٍ ومُحدَّدة، "بحيثُ يكونُ عامِلاً مِن عواملِ الكَشفِ عن أبعادِ الشّخصيَّة، أوِ التّطوُّرِ بالحَدَثِ أو تجليةِ النَّفسِ الغامضةِ أوِ الفِكرةِ المُراد التّعبيرُ عنها"[1].

مُوظِّفاً في ذلكَ الحِوار اللّغة "اللّهجة" العامّيّة إلى جانبِ الفُصحى (اللُّغة الأمّ)، بأسلوبٍ بسيطٍ في شكلهِ، عميقٍ مُوجَّهٍ في مضمونهِ إلى كافّةِ مستوياتِ المتلقّينَ على اختلافِ مستوياتهم الثّقافيّة، ساعياً لكشفِ دواخلِ الجماعةِ الرّيفيّة، والغوصِ في تفاصيلِ حياتِها، وعاداتِها، وتقاليدِها، وتوثيق كلّ ذلك بحوارٍ يصلُ إلى الجميع، موظّفاً إيّاهُ في تصعيدِ الحدثِ للوصولِ إلى الإبانةِ عنِ الحالةِ النّفسيّةِ للشّخصيّةِ الرّيفيّة، ومُستثمِراً اللهجةَ العامّيةَ لخدمةِ ذلك، ما شكّلَ دافِعاً وتجديداً في الرّوايةِ السّوريّةِ الواقعيّةِ الّتي نهضت بعد ستّينيّاتِ القرنِ الماضي من رومنسيّتها المُقيَّدة بقيودِ السّلطةِ الّتي كانت آنذاك تخنقُ التّعبيراتِ الواقعيَّة، وتفرِضُ عليها رقابةً صارِمة أدّت إلى تأخُّر ظهور هذا الاتّجاه الأدبي في الرّواية السّوريَّة، خاصّةً الرّواية الاجتماعيَّة، ما جعلَ "داوود" يسعى إلى بناءِ تجربة واقعيّة مُغايرة لما مرّت بهِ التّجربة الرّوائيّة السوريّة خلالَ فترة الستّينات في تجاهلها الرّيف، وتحرّرها في السّبعينيّات من ذيول الرومنتيّة، حيثُ "بدأت تملك أدواتها الفنّيّة، وتشهد صحوة روائيّة تتّسم برغبة واقعيّة عارمة في الاقتراب من الواقع الاجتماعي في المدينة والريف على حدٍّ سواء"[2] وفي اختيارِها اللغة الوسطى في السّرد والحوار، ف "الواقعيّة هيَ المذهب الوحيد الذي تميّزَ بالواقعيّةِ والانتشار"[3]. ونتيجةً لعدمِ قدرةِ الفصحى في كثيرٍ منَ الحواراتِ الوصولَ إلى البُعدِ اليوميّ للشخصيّاتِ الناطقة، أدّى ذلكَ إلى ظهورِ مُفرداتٍ جديدة تُستخدَم وتُدرَج بحُكمِ استعمالِها.

ولأنَّ البيئة الّتي يتحدّث عنها الأديب "أحمد داوود" هيَ بيئة شخصيّاتُها خليطٌ من أناسٍ بسيطين، وآخرينَ مثقّفين، طعّمَ رواياتهِ بالعامّية، عامّيّة لم تعمد إلى تشويهِ الفصحى كما يتحدّث الكثير من النقّاد الرّافضين لفكرة توظيفها في الأعمال الأدبيّة، وإنّما كانَ تطعيماً منحَ العملَ الأدبيّ خصوصيّة، من حيثُ إنّها عامّية منحدرة أصولها منَ الفُصحى، متطوّرة عنها، مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، كما لهجة أهل الرّيف السّاحلي السّوري. وهذا النّوع من العامّية لا يشكّل خطراً على الفصحى واستخداماتها، بل تناوله كبارُ الأدباء العرب والعالميين، وذلكَ تماشياً معَ التطوّر الطّبيعي الذي تشهدهُ اللغات بشكل عام، والعربيّة على وجهِ الخصوص، فاللغة التي لا تُستخدم تموت. وقد أتى هذا الاستخدامُ إلى مفرداتٍ ليست بعيدةً عنِ اللغةِ العربيّةِ الفصحى، فقد باتتِ العامّية الأصيلة اليوم لغةَ التّعاملِ اليوميّ ما حمّلَ الأديب "داوود" مهمّةَ أن يكونَ واضِحاً في خطابهِ الموجّهِ إلى جميعِ المستويات، وأن يكونَ مفهوماً، شعبيّاً وبسيطاً، يكتب بلغةِ الجماهير، حيثُ إنّ استخدامَ العامّيّةِ في الحوارِ يُعدُّ من سماتِ كُتّابِ الواقعيّة في الرّواية العربيّة، وقلائلُ منَ الكتّابِ السّوريينَ الذينَ

---

[1] - النّسّاج، سيّد حامد. *اتّجاهات القِصَّة المصريّة القصيرة*، دار المعارف، القاهرة، 1978م، ص25. (بتقة سليم ص95)

[2] - الفيصل، د. سمر روحي. *الاتّجاه الواقعي في الرواية السورية*، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، 1986م، ص90.

[3] - سمّاق، فيصل. *الواقعيّة في الرواية السورية المعاصرة*، مجلة المعرفة، العدد: 311، دمشق، 1979م، ص176.

- يُنظر: عبود، حنّا. *المدرسة الواقعيّة في النّقد العربي الحديث*، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق، 1978م، ص182.

تجرؤوا في السبعينيّاتِ على كتابةِ نصوصهم بالعامّية وتطعيمها بها، حيثُ "إنَّ إيرادَ بعضِ الألفاظِ العامّيّةِ أوِ الأجنبيّة في التّراكيبِ الفصيحةِ لا ينالُ منَ اللغةِ الفُصحى، ولا يجعلُ منها لُغةً عامّيّةً أو أجنبيّة، فالألفاظُ المُفردةُ لا تخلقُ اللغةَ وتميزها، ذلكَ أنَّ خاصّيّةَ اللغةِ تتمثّلُ في تراكيبِها، وما يتّصلُ بالتّراكيبِ من دلالاتٍ وضعيّةٍ أو جماليَّة"[1]. ما دفعَ الأديب إلى جعلِ الشخصيّاتِ البسيطة تنطقُ بمفرداتٍ عامّية تفرضُها الضرورة الفنّية للنصّ، إلى جانب الفصحى التي أنطقَ بها الشخصيّات المثقفة في الحوار. كما وظّفها لقناعتهَ أنَّ الرّواية الطّويلة إن كُتِبت بالفصحى ستبدو مفتعَلة وسقيمة، خاصّةً إن كانَ أبطالُها لا يتكلّمونَ في واقعِ حياتهم إلّا الفصحى. "وإذا كانت وظيفةُ الحوارِ تتجلّى في كشفِ دواخلِ الشّخصيّاتِ وصِفاتِها وأنماطِ تفكيرِها، فإنّها تكشِفُ من جهةٍ أخرى عنِ الوظيفةِ الاجتماعيّةِ للُّغة، إذ يمكنُ للحوارِ أن يُفرزَ لُغةً طبقيّةً ذاتَ بُعدٍ اجتماعيّ، ويأخذَ هذا حدّهُ الأقصى حينَ يستخدمُ الخطابُ اللّهجةَ العامّيّةَ الّتي تُعبّرُ عن آليّةِ تفكيرِ الشّخصيّاتِ وفقَ شرطِها الاجتماعيّ"[2]. كما أنَّ "عمليةُ تحديد الطّبقات الاجتماعيّة استخدمها من قبل أدباء عالميّون من مثل "بلزاك"، و"برونس" الّذي حاولَ أن يقيسَ اللغةَ على مقدارِ الوضعِ الاجتماعيِّ للشخصيّة في كتاباتهِ الرّوائيّة"[3].

ومن هنا جاءَ توظيفُ العامّيّةِ إلى جانبِ الفُصحى مُساهِماً في الإخلاصِ للرّوايةِ الواقعيّةِ النّاطقةِ بدواخلِ شخوصِها، محاكاةً لما نادى إليهِ سابقاً "رولان بارت" في تأثيرِ الواقعِ، في لُغةٍ "تُقرّبُ الفُصحى منَ الحياةِ ومنَ العصرِ، وتستفيدُ منَ العامّيّةِ وتراكيبِها لإعطاءِ الصّنيعِ الفنّيّ ظِلالاً إبداعيّةً تحِملُ نكهةً شعبيّةً حياتيّة "[4]. فاستخدامُ اللهجاتِ الدّارجة في ثنايا السّرد يعمّق الصّورة، خاصّةً في بيئةِ روايات "داوود" المُعتمِدة في متنها الأساسي على النّصّ الشّعبيّ. فجاءَ توظيفهُ العامّيّة بهدفِ توضيحِ الحالاتِ الشّعوريّةِ والنّفسيّةِ لشخوصهِ الرّوائيّة التي قد تعجزُ الفصحى حينها عن إيصالِها والتّعبيرِ عنها، توظيفاً غيرَ مُغرِق، وإنّما استجابةً للضّرورةِ الفنّيّةِ الّتي يقتضيها حوارُ الشّخصيّاتِ فيما بينها، فلكلِّ بيئةٍ مفهوماً واقعيّاً واجتماعيّاً، وللّهجةِ المحلّيةِ خصائصُ ومميّزات تجعلُها قادرة على التّصويرِ والإيحاءِ أكثرَ من قدرةِ الفصحى وحدَها على ذلك. وهذا يتّفق مع الحقيقة القائلة بأنَّ اللّغةَ "في نهايةِ المطافِ ظاهرةٌ اجتماعيّة والمجتمع والمُجتمعات تتفاوتُ في مُستوياتِها الثّقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، واللُّغةُ مِرآةٌ لكُلِّ هذهِ الأبعاد"[5]. وهذا ما يحدّ من انتقاد البعض استعمال العامّيّة إلى جانب الفصحى، والقول بأنّها تحدّ من انتشار العمل الأدبي ضمن نطاق محلّي ضيّقٌ.

ثالثاً_ اللغة الوُسطى في روايات "أحمد يوسف داوود":

إنَّ العامّيّة اليوم أصبحت في مُستواها الأدبي أكثر اتّساعاً واستيعاباً لاحتياجاتِ الأدب، لاحتياجاتِ المُبدعِ، والكاتبِ، والإنسان والمتلقّي، دونَ المساسِ بحقيقةِ أنَّ الفصحى هيَ المستوى اللغويّ الوحيد الّذي ينبغي أن يُدوَّنَ فيهِ الإبداعُ الأدبيّ، فهيَ الرّسالةُ والأداةُ الأسمى للتّعبيرِ عنِ الإبداعِ العربّي الإنسانيّ.

وقد اعتمدَ "أحمد يوسف داوود" على الحوارِ في بناءِ رواياتهِ ونصوصهِ الروائيَّةِ المُنبثقةِ من بيئةٍ شعبيَّة مُتعدِّدةِ المستوياتِ والشَّرائحِ الاجتماعيّة، مُلتزِماً الواقعيَّةَ اللُّغويَّة، إلى الحدِّ الّذي يكونُ فيهِ حوارهُ مُتواصِلاً معَ النَّاسِ، مُعايِشاً لهُم ومُتعايِشاً معَهُم، ناطِقاً بلسانِ حالهم، قريباً منهم، من نفوسهم، مُعبِّراً عن مكنوناتِهمُ النّفسيَّة وانفعالاتهمُ الإنسانيَّة، فوظّفَ

---

[1] - هلال، د. محمد غنيمي. *النقد الأدبي الحديث*، دار نهضة مصر، 1997م، ص673.

[2] - حطّيني، يوسف. *مكوّنات السّرد في الرواية الفلسطينيّة*، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1999م، ص222.

[3] - بارت، رولاند. *الكتابة في الدرجة صفر*، ص106. توثيق

[4] - مُنيف، عبد الرّحمن. *الكاتب والمنفى (هموم وآفاق الرّواية العربيّة)*، دار الفكر الجديد، بيروت، 1992م، ص191، (بتقة سليم). ممكن توثق مكرر تأكد

[5] - العمايرة، محمد أحمد. *بحوث في اللغة والتربية*، عمّان، 2002م، ص523.

في خدمةِ غرضهِ اللّهجة العامّيّة توظيفاً لم يقصِد معهُ المساسَ بالفُصحى، متنقّلاً بينها وبينَ الفصحى وفقَ ما يناسبُ السِّياقَ، في مستوىً لغويّ يصلُ إلى الجميعِ، فالفصحى نجِدها في المواقفِ الجدّيّة، وتناوُلِ الحواراتِ الرّسميّة، والقضايا الكُبرى كالمَوت، والغضب، والكُره والحُبّ..، واللّهجة العامّيّة (لغة التُّراث)، لسردِ الوقائعِ اليوميَّة، والمواقف الطّريفة، ولسردِ الأمثالِ الشّعبيّة المُتوارَثة. وبناءً على ذلك لم يجدِ الكاتبُ مجالاً لتوظيفِ لُغةٍ واحدةٍ في نصوصهِ الواقعيّة، بل تعدَّدَتِ اللُّغاتُ بتعدُّدِ الشَّرائحِ الاجتماعيَّة، وهيَ سمةٌ من سماتِ الواقعيَّةِ أسهمت في تعميقِ واقعيّةَ الرّواية، انطِلاقاً من حاجةِ السّياقِ لها. فعندما يجعلُ الكاتبُ في نصٍّ شعبيّ "العتّال"، أو "الفلّاحَ"، أوِ "السَّائقَ" يتحدّثُ الفُصحى، سيبدو النصُّ مُصطنَعاً، وكأنّهُ في قالَبٍ جامدٍ موضوعٍ لهُ من قبل، كونَ مفرداتِ اللغةِ العربيّةِ الفصحى تصعُبُ على هذهِ الشّريحةِ البسيطةِ منَ النّاس، ما يخلقُ حاجزاً بينَ القارئِ والنّصّ، وصعوبةَ وصولهِ إلى مختلفِ القرّاءِ. ومن هنا كانَ الانحيازَ للفُصحى دونَ العامّيّة، أو العكس في مثلِ هذهِ النّصوصِ الشّعبيَّةِ الواقعيَّة هوَ نِصفُ رؤية للصُّورةِ الواقعيَّةِ فقط، ولعلَّ هذا ما تحدَّثَ عنهُ وذهبَ إليهِ الأديبُ المِصريّ "نجيب محفوظ" حينَ قالَ: "ليستِ الصُّورةُ الواقعيَّةُ صورةً لِما يقع ولكن لِما يُحتَمَلُ وُقوعُه، فالشَّخصُ في الحياةِ ليسَ هوَ حرفيَّاً في الرِّواية، وكذلكَ الحادِثةُ والمكانُ والزّمانُ، فماذا يمنعُ أن تكونَ لُغةُ الحوارِ في الرِّوايةِ مُختلفةً عنِ الواقعِ في نُطقِها ولهجتِها فقط؟"[1]. فاللُّغة الّتي لا تُستخدَم تموت، والرّواية العربيّة السُّوريَّة قدِ اختارتِ الفُصحى سرداً وحِواراً. ووفقاً لطبيعةِ اللُّغات، فقد أدَّى التجدُّدُ إلى ظُهورِ مُفرداتٍ جديدة أصبحت شائِعة بحُكمِ استعمالها، وهذا ما حدا بالعديدِ منَ الرّوائيّينَ تطعيمُ رواياتهم بالعامّيّة، وجعلِها جُزءاً مُهمَّاً في الحواراتِ الرّوائيّة، ما منحها خُصوصيّة، وقرَّبَ بينَ الشّخصيّاتِ والمتلقّينَ على اختلافِهِم. وهنا نتحدّثُ عنِ العاميّةِ المتجذّرةِ في أصولِها منَ الفُصحى، وليستِ العامّيّة المُعاصرة البعيدة كلّ البُعد عنِ الأصل، ف" الاختلافاتُ بينَ الطّبقاتِ الاجتماعيَّةِ تؤثّرُ على عمليَّةِ الاتّصالِ، فكُلَّما زادتِ الاختلافاتُ الثَّقافيَّةُ بينَ الرَّاوي والباحث، كُلّما زادت صُعوبةُ الاتّصالِ بينهُما"[2]. ومن هُنا يمكن لنا أن نفهمَ جماليةُ استخدامِ العامّيّة وتوظيفِها إلى جانبِ الفُصحى من حيثُ إنَّ الفصحى ستكونُ عصيَّة على فَهمِ شريحةٍ واسعةٍ منَ النّاسِ البُسطاء من جهة، وجامدة إذا ما أرادت النُّطقَ بلسانِ حالِ الفلّاحِ، والعاملِ، والطّفل. من هنا يمكن للعامّيّة أن تكونَ صلةَ وصلٍ للوصولِ إلى الفُصحى، العامّيّة المحكيّة في السّاحلِ السّوريّ، المتجذّرة منَ الفُصحى في كثيرٍ مِن كلماتِها ومُفرداتِها، وليسَ العامّيّة الدّارجة، عامّيّة العصر الّتي فرضتها طبيعة الحياة وفرضتها على اللُّغة.

"قُلنا لهُ:

– اكتُب أحاديثُنا بلهَجاتِنا العامّيَّة يا أَخ.

قال:

_ بتطلع شوربا.

ثمَّ رازَنا بنظرةٍ مُتفحِّصة كما لو أنَّهُ مُحقِقٌ يَروزُ مُتَّهَمين:

_ وبعدين، فهّموني، حَضَراتكُم ضدّ الفُصحى؟!

وهُنا هتفنا جميعاً بصوتٍ مرعوبٍ مُوحَّد لم يخرُج عنهُ إلَّا أبو الشّبَك:

_ العياذُ بالله !.. نحنُ بَنو الضَّادِ وحُرَّاسُها يا رَجُل! أي نعم.. بنو الضَّادِ ونواطيرُها من كُلِّ مُعتَدٍ أثيم! لكنَّ أبو الشَّبك تنحنحَ، ثُمَّ حملقَ في الكاتبِ وقالَ بِهُدوءٍ يُشبهُ ذلكَ الَّذي يَسبِقُ العاصِفة:

---

[1] **- محفوظ، نجيب. *أتحدَّثُ إليكُم*، دار العودة، بيروت، 1977م، ص 48.**

[2] **- علي، علي اسماعيل. *المهارات الأساسيَّة في ممارسة خدمة الفرد*، دار المعرِفة الجامعيّة، القاهرة، 1995م، ص 107.**

_ بسَ يا خال.. مَعلومك، الفُصحى للميكروفونات، والاحتفالات، والبيانات و الخطابات..

فهدرَ الكاتبُ وهوَ يُقاطِعُهُ ويَضرِبُ قبضتَهُ بشراسةٍ على الطَّاوِلة قُدَّامهُ:

_ لا، سيدي. الفُصحى لكُلِّ شيء حتَّى للحرب! فكّر حضرتك إذا كانَ لكَ رأس.. كُلُّ الحُروبِ الَّتي انتصرنا فيها خُضناها بالفُصحى يا قبضاي.

وزأرَ أبو الشَّبك بدورِهِ، ودارَ الحِوارُ كأنَّهُ معركة ونحنُ صامتونَ مُترقِّبون:

_ عمّي، لا تجدبها علينا!.. هون عم نحكي بالجنون، وبالعامّيَّة كمان! وبدنا نقيّد عَ الورق يللي عم نحكيه وبس!"[1].

فالعامّيّة الّتي كتبَ بها ومن خلالها الأديب "أحمد داوود" هيَ تلكَ العامّيّة التي لا تقصِدُ تشويهَ الفُصحى، كما أنَّ استعمالهُ لها بشكلِها في رواياتهِ لا يبعِد الكلمة الفصيحة عن مدلولِها العربيّ السليم، كما أنَّهُ لم يشوّهها أو يبعِدها عن جَرسِها وإيقاعِها، بل يكادُ ينحصرُ في استعمالِها بتغييرِ حركاتِها، أو قلبِ حُروفِها، فجماليةُ اللغة الوُسطى الّتي وُظِّفَت في الرّواياتِ تتأتّى من كونها لم تُكتَب باللُّغةِ العامّيّةِ المُبتذَلة، ولا باللُّغةِ الفُصحى القديمة الّتي يشقُّ فَهمُها على أوساطِ الناسِ على اختلافهم، وإنَّما كُتِبت بلُغةٍ وُسطى يفهمُها كُلُّ قارئٍ لها مهما يكُن حظُّهُ منَ الثّقافة، ويفهمُها الأمّيّونَ إن قُرِئَت عليهم.

إنَّ اللُّغةَ لا تعكِسُ الواقعَ، بَل تُنتِجُهُ. وهُناكَ مواقفُ لا تَصلُحُ لها إلّا الفُصحى، ولوِ استُعمِلتِ العامّيّةُ فيها كانتْ مَوضِعاً للاستهجانِ والغرابةِ. وفي المُقابِل هُناكَ مواقف في الحياةِ اليوميّةِ تتطلَّبُ استعمالَ اللهجةِ العامّية، ولوِ استخدمَ الكُتّابُ فيها الفُصحى لكانَ في ذلكَ ما يدعو إلى اتّهامِهم بالجهلِ أوِ التّقصيرِ في إيصالِ فكرتهم إلى الشّريحةِ الأوسعِ منَ النّاس، غيرِ المتمكّنةِ منَ الفصحى الرَّصينة. فالعامّيّةُ تُنتجُ نَسَقاً منَ العلاقاتِ وقواعدِ التّفكيرِ المُغايرةِ لِما تُنتِجُهُ الفُصحى في المُحاولاتِ الجادّة للتّمرّدِ على طريقةِ التّفكيرِ النّمطيَّة، ووعاءٌ مهمٌّ يتضمّنُ الخبراتِ المتراكمةِ للنّاسِ بسجيّتهم وعفويّتهم وبساطتهم. فكانتِ اللغةُ الوُسطى حاضِرةً من طرفِ الشّخصيّاتِ، ولها حضورٌ مهمٌّ في لُغةِ الحوارِ. فعندما أرادَ الكاتبُ الشّتيمةَ في رواياتهِ على سبيلِ المثال، لم يجد بُدّاً منِ استعمالِ العامّيةِ الّتي لم تبتعد في كثيرٍ من كلماتِها واستخدامها في السّاحلِ السّوريّ عنِ الفُصحى، ووظّفها في ثنايا حوارِ الشّخصيّاتِ الّتي لو شتمت وتحدّثت بالفُصحى لما امتلكتِ القدرةَ على الوصولِ إلى القارئِ، وشحنهِ عاطفيّاً ليتمكّنَ من قراءةِ الحالةِ النّفسيّةِ التي اعترتِ الأطراف المُتحاورة في حالةِ الغضبِ والسُّخط والشّتيمة:

"فصرخت أمّون وقد تملَّكها الهياج:

_ إي عيب.. عيب يا ستّ. استحي على آخرتك وشَرَفك.

وفوجِئَت السّتّ بالشّتيمة مُفاجأة كامِلة، فصرَخَتْ بدورِها مُهتاجة:

_ العيب على أصحابه يا أمّون. لمّي لسانك هه!

_ واللّه قَدرك أقلّ منَ الرّدّ عليكِ يا بنت حامد الطّشّة."[2]

فأغلب الكلمات العامّيّة هيَ في الحقيقة جذورُها فُصحى (عيب، استحي، آخرتك، شرفك، لمّي، قدرك، الرّدّ عليكِ..).

وفي هذا الاستخدام للُّغةِ الوسطى تيسيرُ وتسهيلُ وصولِ اللُّغةِ إلى مُختلفِ الطَّبقات، وكسرُ رتابةِ السّردِ الفصيح، ودمجهُ في تلكَ البيئة من خلالِ اللغةِ المُستخدَمة، وقُدرتُها على استحضارِ البيئةِ بعفويّةِ أُناسِها، وعاداتِهم وتقاليدِهم:

---

[1] - داوود، أحمد يوسف. *فردوس الجنون*، منشورات اتّحاد الكُتّاب العرب 1996م، ص 19، 20.

[2] - داوود، أحمد يوسف. *الأوباش*، منشورات وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982م، ص 221، 222.

"_ يا حميدان. برمّانة كلّها تعرف، بعمرها ((ما حطّيتها وطيّة))، لكن.. وحقّ مقام سيدي الشّيخ فاضل معزّة أمّ رشيد عندي بالدّنيا كلّها.. سامحيني يا أمّ رشيد. برحمة الحاجّ إبراهيم سامحيني. هه"[1].

فلكلِّ بيئةٍ مفهومُها الاجتماعيّ الواقعيّ الّذي لا ينحصرُ في الألفاظِ فقط، بل يقوى ويضعُف تِبعاً لدرجةِ التّوعيةِ البيئيّةِ والثّقافيّةِ فيها، وتِبعاً للمستوياتِ الثّقافيّةِ لشُخوصِها. وقدِ التزمَ "داوود" بتصويرِ بيئتهِ تصوراً اجتماعيّاً واقعيّاً صادقاً. وما أسماهُ البعضُ اختراقَ العامّيّةِ للفُصحى أوِ اختراقاتِ الفُصحى للعامّية على نحوِ ما يستخدمهُ سكّانُ الرّيفِ السّاحليّ، جاءَ شَكلاً من أشكالِ اللغة، قرّبَ الفُصحى منَ الحياةِ العامّةِ وأعطاها في كثيرٍ منَ الحواراتِ رونقاً جديداً بملامحَ شعبيّة مقبولة لدى الأغلبيّة منَ القرّاءِ والمتلقّين.

"ويقهقهُ الأفندي مُغتبِطاً ويقول إبراهيم الحمّود:

_ أنت ذوقك فاسد! ماذا أفعل لك؟ معَ ذلك فالحقيقة لم أذُق دُخّاناً لهُ مثل نكهةِ دخّانِ الأفندي..

ويؤكّدُ الرّجال ثانيةً روعةَ التّبغِ الأشقرِ المفرومِ فرماً جذّاباً... ويُعلنُ هوَ كأنّهُ يُلقي مَوعِظة:

_ يا ابني هذا دخان ((شكّ البنت))! توصية خاصّة من جرد (جبلة) لعمّكم عاصي أفندي!"[2].

فَ "شكّ البنت" أو المسمّى – أيضاً –"تبغ القوّة" الّذي استثمرهُ الكاتِب هوَ من أجمل أنواعِ التّبغِ الذي يزرعهُ الفلّاحونَ في حواكيرِ السّاحلِ السّوريّ وأجملِها، ومئاتُ العائلاتِ الفقيرة في ريفي طرطوس واللاذقيّة تعيش على زراعةِ التبغِ بالدرجةِ الأولى، ومن بيعِ هذا النّوعِ الذي كانَ يتباهى بتدخينهِ الآغا، والإقطاعي، ورئيس المخفر ورِجالات الدّولة كانَ يوفّرُ المقهورونَ ما يسدُّ رمقهم.

"وهمهمَ الرّجالُ بينَ مُوافقٍ ساذج وبينَ ساخرٍ يكتمُ سخريتهُ ويضحك في أعماقه:

_ عملتموها قضيّة.. وخجّلتم الصّبي! تظنّونني أهتمُّ لهؤلاءِ (الشّلاعيط)؟ يا ابني عمّكم عاصي مرّ على رأسه الكثير.. أخرسَ عُلَماء.. عُلَماء كبار يا ابني.. شابَ رأسي في هذهِ المسائل! هه.. زهوان! غنِّ لي شيئاً هات!! غيّر لي هذا الجوّ هات!!"[3].

وقد جاءت مساحة اللغة الوسطى في روايات "داوود" محدودة وفقَ حاجةِ السّياقِ الفنّيّةِ لها، بالقياسِ إلى الفصحى رَصينةِ التّراكيبِ، فخمةِ المُفردات. وقد تخلّلَها توظيفُ العامّيّة لإبرازِ جانبٍ جماليٍّ إبداعيّ في العملِ الرّوائيّ، وذلكَ عندما كانَ الحِوارُ فصيحاً رصيناً، عصيّاً على الفَهمِ، تحتدُّ لهجَتُهُ في تصاعُد، فيصبحُ حائلاً دونَ تواصُلِ الشّخصيّاتِ المُختلفةِ، أو حينما يكونُ شعبيّاً مُبسَّطاً لدرجة لا ينفعُ معَها أن يكونَ فصيحاً بحتاً. فتعدّدُ الشّرائحِ الاجتماعيّةِ في الروايةِ الواقعيّة يؤدّي بالضّرورةِ الفنّيّة إلى تعدُّدِ اللغة الّتي تُعبّرُ عن كُلِّ شريحةٍ وثقافتها، فالفلّاحُ، والعاملُ، والمرأةُ الرّيفيّةُ البسيطة تتحدّثُ العامّيّة، ورجُلُ الدّينِ يتحدّثُ الفُصحى المَشوبة بالعامّيّة المملوءة بالعاداتِ والتّقاليدِ، والإقطاعي يتحدّثُ بلُغةٍ فُصحى مشحونة ببعضِ الألفاظِ العامّيّةِ التي يستطيعُ من خلالها التّعالي على باقي النّاسِ الرّيفيّينَ البُسطاء. فقد جعلَ الكاتبُ اللغةَ العامّيّةَ البسيطة في مواضعَ محدّدة لُغة الأمّيّينَ والبُسطاء، والفُصحى لُغة المثقّفين، وبذلكَ صحَّ القولُ إنّ تعدُّدَ اللغاتِ بتعدّدِ الشّرائحِ تعدُّدٌ واقعيّ لدى الأديب "أحمد داوود" في كتابتهِ عنِ البيئةِ الّتي وُلدَ وعاشَ فيها.

"صافَحَت صفيَّة خائُم وهيَ تصيحُ صَيحةً خافِتة:

_ اسم الله على هذهِ القامة.. جَمال وحَلا.. إنَّما.."[4].

---

[1] - ***الأوباش*، ص 224.**

[2] - **داوود، أحمد يوسف. الخيول، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، 1976م، ص 45.**

[3] - ***الخيول*، ص 53.**

[4] - **داوود، أحمد يوسف. *دمشق الجميلة*، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق 1976م، ص 42.**

" والتقَطَت عائِشة طرفَ الخَيطِ فقهقَهَت مُحاوِلةً تبديدَ انزعاجٍ صفيَّة وقالت:

_ مَعلوم.. قلَّة الرِّجال مصيبة.

_ اللَّه يسامحك.. ليسَ هذا ما أقصِدُهُ أبداً، ولكن..

_ ولماذا لا ((تدبّريه))؟"[1].

فلغةُ الحوار تُعتَبَرُ أداةَ التّواصُلِ الحقيقيَّةِ والأساسيّة معَ القارئ، لأنّها تحمِلُ دلالةً للأفكارِ الّتي تعبّرُ عنِ الشّخصيّاتِ الّتي تقدّمُ نفسّها فيهِ بعيداً عنِ السّارد، كما أنّها ترجمة للحالة النّفسيّة للشّخوص المتحاوِرة. ومشكلةُ الحوارِ في معظمِ الرّواياتِ الّتي تتحدّثُ عنِ الرّيفِ ومواقفهِ البسيطةِ العفويّة أنّهُ يفشلُ لدى البعض عندما يحمّلونهُ ثِقَلاً أكبرَ ممّا يحتاجهُ، خاصّةً عندما يكونُ بسيطاً. فمهمّةُ الحوارِ ليسَ السّرد، وإنّما الإضاءةُ على جميعِ جوانبِ الشّخصيّةِ، وتقديمها كما هيَ، حيثُ إنَّهُ من غيرِ الصّائبِ في الحواراتِ الشّعبيّة أن يكونَ الحِوارُ أعلى مُستوىً منَ القارِئ، انطلاقاً من تفرُّدِ كُلِّ نَصٍّ بلزوميّاتهِ، ومن أنَّ "اللغةُ العربيَّةُ الفُصحى لا يُمكنُ أن تُعبِّرَ بلُغةٍ تُناسبُ جميعَ الشّخصيَّاتِ وأُفُقَها الفكريّ والثّقافيّ، ويبقى الحلُّ الأقربُ إلى الصّدقِ الفنّيّ هوَ استخدامُ اللغةِ المُبسَّطة، على الرَّغمِ من محاذيرِ استخدامِ اللغةِ العامّيّةِ الّتي يُمكنُ أن تُشكّلَ معَ مُرورِ الزَّمنِ بديلاً خطيراً للُّغةِ العربيَّةِ الفُصحى، فإنَّ استخدامَ هذهِ اللهجةِ يغدو أكثرَ انسِجاماً معَ الشّخصيَّةِ الشَّعبيَّةِ وأكثرَ دِقَّةً في التَّعبيرِ عن مُجتمعِ الرّواية"[2].

فعندما نتحدّثُ عن نصٍّ واقعيّ نكونُ أمامَ عملٍ أدبيٍّ مُتعدّدِ النُّصوصِ والشّخصيّات؛ أي التعبيرُ عن واقعِ الشخصيّاتِ البشريَّة الحيّة في مجالٍ كُلُّهُ حوار، وتصويرُ الرّوائيِّ لواقعِ هذهِ الشّخصيَّاتِ بصدقٍ لا يمكنُ أن يتمَّ باستعمالِ الحوارِ الفصيحِ وحده، الّذي يقضي على خصائصِ اللهجةِ المحلّيّة حيثُ يحتاجُها السّياق.

" الخُطا تنسربُ في دورانِها البائسِ عاجِزةً عنِ الوُصول والمُتسكّعونَ يَلهَثون.

_ هذهِ امرأة حقيقيّة!!

_ أهلاً يا جميل

_ يا عَيني على الأَقمار

_ تسلم لي هذهِ القامة.. لماذا أنتِ وحدَكِ؟ ألا تُريدينَ رفيقاً؟"[3].

" قالَ السّجّانُ بنظرةِ القبرِ الّتي في عينيه:

_ تضرب، لو أنّكَ كُنتَ مَحسوباً على أحد يا ابن الحرام.. على الأقلّ (كنّا لحسنا أصابعنا). حالة خ... اطلع، تنفّس!

_ أمّ أمينة. لمّي لسانك عن الرّجل، خلّوه يتنفّس.

_ سنة كاملة وما تنفّس؟!

_ وأنت مالك عليه؟! أمّا عجايب! كأنّك تريدينَ فضيحة لبنتك!!

_ يوه! أنت من فمك قلت قبل روحته للسّجن: سيطلبها، وسألتني: موافقة؟ وقلت لك موافقة. والبنت راعت خاطره وانتظرته. يعني.. يتركها تبور؟!

_ يا عمّي الرّجُل ملخبط، كأنّه بلا ذاكرة. اتركوه بحاله.. كفّوا بلاكُم عنه، يكفه ما فيه"[4].

---

[1] - *دمشق الجميلة*، ص 44، 45.

[2] - يوسف حطّيني. *مكوّنات السّرد في الرّواية الفلسطينية*، ص 222.

[3] - *دمشق الجميلة*، ص26، 27.

[4] - داوود، أحمد يوسف. تفّاح الشّيطان، الأهالي للطباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2000م، ص 12، 13.

لقد أضفى تطعيمُ الفُصحى بالعامّيّة وفقَ ما يتطلّبُ السّياقُ طابَعاً لُغويّاً بسيطاً عامّاً في مواضعَ معيّنة ومُحدّدة، جسّدهُ حوارٌ يتميّزُ بالبساطةِ وعدمِ التكلُّف. وهذا التّطعيمُ كانَ قد سبقَ إليهِ أدباءُ عالميّونَ، فحتّى في الآدابِ العالميّة هناكَ كلمات كُتِبت وما زالت تُكتَب بالعامّيّة وفقَ الضّروراتِ الّتي حتّمتِ استخدامَ بعضِ مُصطلحاتِها.

وفي القرن الثّامن عشر، في الفترة الّتي بدأت فيها البرجوازيّة تسيطرُ على كلّ ما تجدهُ على حدودِ مجالِها، كالحيّز الضيّق من المجتمع وعلاقاته المحدودة البسيطة، بدأتِ الآدابُ الغربيّة تحاكي الواقع، و"بدأ الكاتبُ فيها يتابعُ فعلاً اللغاتِ المحكيّة، لا على سبيلِ الإضحاكِ، بل لكونِها مواضيعَ جوهريّة تستوفي مقولَ المُجتمعِ كُلّه، وبدأتِ الكتابةُ تجعلُ موضوعَ استجاباتِها الكلامَ الحقيقيَّ للنّاسِ، ولم يعُدِ الأدبُ وسيلةَ افتخارٍ أو هروب، بل بدأ يُصبحُ عملَ إعلامٍ واضح. وقد أوكلَ الأدبُ لنفسهِ مهمّةً سابقةً على كلِّ رسالة، مهمَّتُها الاطّلاعُ اطّلاعاً مُباشراً على وضعيّةِ النّاسِ المُعتكِفينَ داخلَ لسانهم، وطبقتِهم، وديانتِهم، ومهنتِهم، وميراثِهم أو داخلَ تاريخِهم"[1]. فعمليّةُ تناوُلِ جميعِ المجموعاتِ الاجتماعيّةِ المُتخاطِبة فيما بينها استُخدمت من قبلِ أدباءَ عالميّينَ، وهيَ تمثّلُ غوصَ أيِّ كاتبٍ واقعيّ في الحالةِ الّتي يصفُها. ومِن هُنا "ينبغي الإقرارُ بأنَّ كُلَّ وسائلِ الوصفِ والتّصوُّرِ للُّغةِ الواقعيّة هيَ بالنّسبةِ إلى الكاتبِ الفِعلُ الأدبيُّ الأكثرُ إنسانيَّةً[2]. وقد وظّفَ "بلزاك" و "بروست" اللهجات المحكيّة إلى جانبِ الفُصحى لتحديدِ المجموعاتِ الاجتماعيّة داخلَ الحوار. وقد حاولَ "بروست" أن يقيسَ اللغةَ على مقدارِ الوضعِ الاجتماعيّ للشّخصيّةِ الواقعيّة في أعمالهِ الرّوائيّة، "فإنَّ ما يُلخّصُ الشّخصيّة من شخصيّاتِ "بروست" هوَ لغتُها المُميّزة لها. وعلى هذا المُستوى يندمج وينتظم فعلاً كلُّ وضعِها التّاريخيّ، أي؛ مهنتَها، وطبقتَها، وثروتَها، وميراثَها، وتكوينها البيولوجيّ. وهكذا بدأَ الأدبُ يتعرّفُ على المجتمعِ باعتبارهِ طبيعةً يطمحُ إلى إعادةِ إنتاجِ ظواهرِها"[3].

والعامّيّة اختلافاً عنِ الفُصحى ليست جامدة، بل تتطوّر وتتجدّد وفقاً لطبيعةِ اللغاتِ المتجدّدة، ف "اللغة طقسٌ اجتماعيٌّ منَ التّعابير، وحيثُما وُجِدَت فهيَ لُغةٌ واحدة تعكسُ مقولاتِ العقلِ الخالدة"[4]. فما الضّيرُ في لغةٍ وسطى تكونُ جسرَ التواصلِ بينهما، يلتقي عندها أفرادُ المجتمعِ العربيّ، لغة متجذّرة من الفصحى ومنبثقة عنها، وليست تهميشاً لها "ففي الحقّ لا صراعَ بينَ الفصحى والعامّيّة. فلمن شاءَ منَ الكُتّابِ أن يختارَ جمهوره، وفي الأممِ جميعاً منذُ القديم يعيشُ الأدبُ الفصيحُ معَ الأدبِ الشّعبيّ عيشةً سليمة، فلا ينبغي أن نُفاضلَ بينَ الفُصحى والعامّيّة لنحتّمَ إحداهما دونَ الأخرى، بل يجبُ أن نترُكَ لكلٍّ منهما مجالَهُ الطّبيعيّ ليسيرَ فيهِ ما شاء، شأنَ الآدابِ الكُبرى"[5]، معَ عدمِ الإفراطِ في استخدامِ اللهجةِ المحكيّةِ على حسابِ الفُصحى، لأنَّ استخدامَ أيّ كاتبٍ للهجاتٍ مختلفة سيقفُ عائقاً أمامَ عمليّةِ التّواصلِ الأوسعِ بينَ النّاس، خاصّةً اللهجاتِ الّتي لم تحقّق تواصُلاً أكبرَ معَ فئاتٍ عديدة، فدعمُ النصِّ الرّوائيّ الواقعيّ يتعلّقُ بتوظيفِ اللهجةِ المحكيّة ذاتِ الجذورِ الأصيلة وفقَ نطاقٍ محدود وحاجةِ السّياقِ لها.

---

[1] - بارت، رولاند. *الكتابة في درجة الصفر*، ترجمة: د. محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، 2002 م، ص 107.
[2] - *المصدر السابق*، ص 108.
[3] - *المصدر السابق*، ص 106.
[4] - *المصر السابق*، ص 55.
[5] - هلال، د. محمد غنيمي. *النقد الأدبي الحديث*، ص 623، 624.

الاستنتاجات والتَّوصيات:

يمكنُ القول إنّ البحثَ في استثمارِ الأديبِ السّوريّ "أحمد يوسف داوود" اللُّغةَ الوسطى في رواياتهِ المُجسّدةِ للريفِ السّوريّ يتَّسمُ بالواقعيّةِ والصّدقِ الفنّي، حيثُ قدّمَ وجهةَ نظرٍ جديدة فيما يخصُّ الإشكالَ الّذي لايزالُ مُستمرّاً حتى اليوم في مُعظمِ الدّراساتِ النقديَّة الّتي قصّرتْ في فَهمِ الواقعِ الموضوعيّ للحوارِ الأدبيّ في السّياقِ الاجتماعيّ لهُ، وفي المفهومِ الفنّيّ للُّغةِ الّتي يُصاغُ بها، وعدمِ خروجِ تلكَ الدّراساتِ عن أمورٍ معيّنةٍ، كإيرادِ الحوارِ على لِسانِ الشّخصيّاتِ المُتعلّمةِ فصيحاً رصيناً وعلى لِسانِ الشّخصيّاتِ الأمّيّةِ أوِ البسيطةِ عامّيّاً من دونِ الوصولِ إلى جسرٍ لُغويٍّ وسيطٍ بينهما بشكلٍ لا يُهمّش الفُصحى ولا يُؤذيها، ولا ينفي العامّيّة. مُستوى لُغويّ يفهمهُ كلُّ جيلٍ ويمكنُ أن يَجري على الألسِنةِ المُختلِفة في مُحيطِها وخارجه.

ومِن هُنا تتأتّى أهمّيةُ البحثِ من خلالِ ما قدّمهُ من تحديدٍ لمفهومِ اللغةِ الوسطى، وكشفٍ لجماليّةِ وسلامةِ استخدامِ الأديب "داوود" لهذا المُستوى اللغويّ في رواياتهِ الريفيّةِ، والذي جاءَ تطعيماً لفُصحى النّصوصِ الرّوائيّةِ باللهجةِ العامّيّةِ المُتداولَةِ على لسانِ أهلِ الرّيفِ السوريّ –السّاحليّ على وجهِ الخصوص– من حيثُ مجيءُ هذا المُستوى حاجةً لنمطَينِ لغويَّينِ عائدَينِ لنفسِ اللغة، انطِلاقاً من أنَّ اللغة العربية الأمّ لا تستطيعُ الاستمرارَ في كلّ البيئاتِ والطبقاتِ وتحتَ كلّ الظروفِ المتغيّرة في قالَبٍ واحدٍ جامد وبنفسِ المستوى اللغويّ المنطوق من دونِ تغيّرٍ أو تطوّر. حيثُ دحضَ البحثُ الدّراساتِ التي قالتْ بتشويهِ العاميّاتِ للفُصحى ومُحاولةِ القضاءِ عليها من حيثُ عدمُ تخصيصِها في دراستِها للَّهجات المختلفة في الوطنِ العربيّ. فقد جاءَ هذا المستوى شكلاً لُغويّاً مَنطوقاً من أشكالِ التّكامُلِ الوظيفيّ بينَ المستويَينِ السّابقَين، في بيئةٍ ريفيَّةٍ لهجتُها العامّيّة متجذّرةٌ منَ الفصحى في أغلبِ كلماتِها، غير مُبتعِدة عن أصولِها وقواعِدها الأساسيّة، لتتكوّنَ من خلالِ هذا المستوى لغةٌ عربيّة محكيّة، وسيطة، عفويّة، أصيلة، ميسّرة، مُستأنَسة من عامّةِ الجمهورِ وخاصّته، ومستوىً لغويّ كانَ لهُ الدّورُ في رصدِ التحوّلاتِ النفسيّةِ لدى مختلفِ الشخصيّاتِ الروائيّةِ على اختلافِ مستوياتها الثّقافية، ينفذُ إلى أعماقِها ويستنطقها، ويُيَسّرُ الفصحى الرّصينة في خطابها معَ باقي الشخصيات الريفية البسيطة التي لا تجيدُ الحديث بها، وبما فيها من رصانةٍ وجزالة، وإنّما تتحدثُ العاميةَ الأصيلة، غير المُبتعِدة عنها أوِ المشوّهة لها، والتي قد يبدو لأوّلِ وهلةٍ لقارئها أنّها مكتوبة بالعامّيّة، ولكنّهُ إذا أعادَ قراءتَها والبحثَ في جذورها طبقاً لقواعدِ الفصحى فإنَّهُ يجدُها منطبقةً على قواعدها قدرَ الإمكان.

من هنا اكتسب هذا البحث خصوصيّتهُ في الدّراسة، من حيثُ قِلّةُ الدراساتِ في الموضوعِ السّابق في الرّواية السّوريَّة، وخِلافاً لما جاءت بهِ اللهجاتُ العربيةُ التي شملَتها الدراساتُ النقديّةُ السَّابقة، والتي ابتعدَتْ فِعلاً عنِ الفُصحى الأصيلة، وتأثّرتْ بلغاتٍ أخرى كانتْ دخيلةً عليها في فَتَراتٍ مُعيّنةٍ كالجزائرية، والمغربية والتّونسيّة وغيرها.

المصادِر والمراجع العربيّة:

1– *القرآن الكريم*.

2– الأزهري، (محمد بن أحمد). *تهذيب اللغة*، (د.ط) (د.ت)، حققه وقدّم له: عبد السّلام محمد هارون، راجعه: محمد علي النجّار، الدّار المصريّة العامّة للتّأليف والتّرجمة

3– أنيس، إبراهيم. *اللغة بين القومية والعالمية*، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1970م.

3- أنيس، إبراهيم. *في اللهجات العربية*،ط1، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955م.

4- الجاحظ. البيان والتّبيين، الجاحظ. *البيان والتّبيين*، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

5- ابن جنّي (أبي الفتح عثمان ، ت 392ه)، *الخصائص*، تحقيق: محمد علي النّجّار، المكتبة العلميَّة.

6- الجواليقي، (موهوب بن أحمد). *شرح أدب الكاتب*، قدّم له: مصطفى صادق الرّفاعي، عنيت بنشره: مكتبة القدسي، القاهرة.

7- الجوهري، (اسماعيل بن حمّاد، ت 398ه).ط4، *الصّحاح تاج اللغة وصِحاح العربية*، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، (بيروت- لبنان)، 1990م .

8- الحاجّ صالح، عبد الرَّحمن. *السّماع العلمي اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة*، منشورات المجمع الجزائري للغة العربيّة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعيّة، الجزائر، 2007م.

9- ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد، ت 456ه) ، *الإحكام في أُصولِ الأحكام*، ط2، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، قدّمَ لهُ: إحسان عبّاس ، دار الآفاق الجديدة ، (بيروت ، لبنان)، 1983م .

10- حطّيني، يوسف. *مكوّنات السّرد في الرواية الفلسطينيّة*، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 1999م.

11- ابن خلدون (وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد ، ت 808ه). *مقدمة ابن خلدون*،ط1، تحقيق: عبد الله محمد الدّرويش، دار يعرُب، دمشق، 2004م.

12- الرّازي، (مُحمّد بن أبي بكر بن عبد القادر). *مُختار الصّحاح*، مكتبة لُبنان، بيروت.

13- رضا، أحمد. *قاموس ردّ العامّي إلى الفصيح*، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1981م .

14- الزمخشري، (محمود بن عمر). *أساس البلاغة*، ط1، دار صادر (بيروت – لبنان)، 1979م.

16- سلّام، محمّد زُغلول. *دراسات في القصّة العربيّة الحديثة*، (د.ت)، مُنشأة المعارِف، الاسكندريّة.

17- عبّود، حنّا. *المدرسة الواقعيّة في النّقد العربي الحديث*، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق، 1978م.

18- العجّاج (عبد الملك بن رؤبة). *ديوان العَجّاج*، تحقيق: الدكتور عبد الحفيظ السَّطلي، مكتبة أطلس، دمشق.

19- عكاشة، محمود. *علمُ اللُّغة (مدخل نظري في اللغة العربيّة)، ط1*، دار النّشر للجامعات، القاهرة، 2006م.

20- علي، علي اسماعيل. *المهارات الأساسيَّة في ممارسة خدمة الفرد*، دار المعرِفة الجامعيّة، القاهرة، 1995م.

21- العمايرة، محمد أحمد. *بحوث في اللغة والتّربية*، عمّان، 2002م.

22- ابن فارس (أبو الحُسَين أحمد ، ت 395هـ). *مقاييس اللغة*، (د.ط)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة، 1972م .

23- فريحة ، أنيس. *اللهجات وأسلوب دراستها*،ط1، دار الجيل، بيروت، 1989م.

24- الفيصل، د. سمر روحي. *الاتّجاه الواقعي في الرواية السورية*، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، 1986م.

25- مادن، سهام. *الفصحى والعامية وعلاقتهما في استعمالات الناطقين الجزائريين*، (د.ط)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

26- محفوظ، نجيب. *أتحدَّثُ إليكُم*، دار العودة، بيروت، 1977م.

27- ابن منظور (جمال الدين محمّد الإفريقي ت 711هـ). *لسان العرب*،ط3، دار صادر، بيروت.

28- منيف، عبد الرحمن. *الكاتب والمنفى (هموم وآفاق الرّواية العربيّة)، ط1*، دار الفكر الجديد، (بيروت – لبنان) ، 1992م .

29- النّسّاج، سيّد حامد. *اتّجاهات القِصَّة المصريّة القصيرة*، دار المعارِف، القاهرة، 1978م.

30- هلال، د.محمد غنيمي. *النقد الأدبي الحديث*، دار نهضة مصر، 1997م.

31- وافي، علي عبد الواحد. *فقه اللغة*، ط3، دار نهضة مصر، 2004م.

32- وافي، محمد عبد الكريم. *منهج البحث في التّاريخ والتّدوين*، ليبيا، جامعة قار يونس، 1995م.

33- يعقوب، إميل بديع. *فصول في فقه اللغة العربية*، ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، (طرابلس – لبنان)، 2008م.

34- يعقوب، إميل بديع. *فقه اللغة العربيّة وخصائصُها*، ط1، دار العلم للملايين، (بيروت – لبنان)، 1982م.

35- يعقوب، إميل بديع. *فقه اللغة العربية وخصائصها*، دار الثقافة الإسلامية، (بيروت – لبنان) .

الرّوايات:

1 – داوود، أحمد يوسف. *الأوباش*، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982م.

2 – داوود، أحمد يوسف. *تفّاح الشّيطان*، دار الأهالي، دمشق، 1988م.

3 – داوود، أحمد يوسف. *الخُيول*، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، دمشق، 1976م.

4 – داوود، أحمد يوسف. *دمشق الجميلة*، اتّحاد الكُتّاب العرب، دمشق، 1976م.

5 – داوود، أحمد يوسف. *فِردَوس الجُنون*، اتّحاد الكُتّاب العرب، دمشق، 1996م.

***المراجع المُترجَمة:**

1 – بارت، رولاند. *الكتابة في درجة الصفر*، ط1، ترجمة: د. محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، 2002م.

2 –اليوت، (ت.س). *مقالات في النّقد الأدبي*، ترجمة: لطفية الزيّات، مكتبة الأنجلو المصريّة.

***المجلّات والدّوريّات العربيّة:**

1 – سمّاق، فيصل. *الواقعيّة في الرواية السورية المعاصرة*، مجلة المعرفة، العدد: /311/ – دمشق، 1979م.

2 – عبد الصَّبور، شاهين. *التحدّيات الّتي تُواجه اللغة العربيّة*، المغرب، المنظّمة الإسلاميّة للتّربية والتّعليم والثّقافة، 2005م. http://www.isesco.org.ma/pub/arabic/Langue_arabe/p9.htm